الجاهلية

سنناً ومظاهر وآثاراً

محسن الأسدي

تعدُّ الجاهلية مرحلــة تاريخية، وقعت قبل البعثة النبوية المباركة لرسول الله ﷺ، وقد تركت آثارها في واقع الناس بكلّ مفاصله العقدية والنفســية والاجتماعية والثقافية والسياســية... وســمّاها بعضٌ بالفترة: «والجاهِلِيّة زمن الفَتْرة ولا إسلامَ» و«المدة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام»، وجاء تأنيثها لتأويلها بالمُدة..

فيمــا ذهب آخر إلى أنهــا «زمان الفترة بين رســولين» بدليل ما نسب إلى رسول الله ﷺ من أنه قال: «... فإنه لم تكن نُبُوّةٌ قطُّ إلا كان بين يديها جاهلية...».

ومعنى الفترة لغةً من الفعل فَتَرَ.. الفَتْرَةُ: الضَّعفُ والسكونُ والانقطاعُ والانكســارُ، وفي التنزيل العزيز: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾.[١] أي لا يسكنون عن نشاطهم في التسبيح والعبادة ولا يضعفون.. وبالتالي فهي ليســت وقت عمل ونشــاط، بل هي مدة تقع بين عملين أو نشاطين... وهي المدّة بين زمنين أو نبيين أو بين رســولين من رســل الله عزَّوجلَّ من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة. وفي الحديث: «فترة مابين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والســلام». وفي التنزيــل العزيز: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

١. الأنبياء : ٢٠.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾.[٢] أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي. أي لم يبعث الله فيها وحياً ولا رسولاً..

وقد امتدت الجاهلية زمناً طويلاً اختلف في تقديره بين قرن ونصف أو مئتي سنة أو أكثر من ذلك بكثير عند من فسرها بالفترة، وقدرت مرةً ٤٣٤ سنة. و أخرى بأن بين عيسى ومحمد عليهما السلام ٥٦٩ سنة...[٣]

ومن المعروف أنّ التنزيل العزيز هو أول من وصف تلك المرحلة التاريخية التي سبقت الإسلام بالجاهلية، وجاء هذا الوصف بعد وقت من الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، بدليل أنه ورد في آيات من السور المدنية: «آل عمران:١٥٤ـ المائدة:٥٠ ـ الأحزاب:٣٣ ـ الفتح: ٢٦» دون السور المكية، وحينئذ راح المسلمون وما زالوا يصفون به ذلك العهد الذي سبق الإسلام، ولعل هذا الوصف جاء تمييزاً وتفريقاً لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور رسالة الإسلام المباركة.

وإنما وصفت تلك المرحلة بهذا الوصف (الجاهلية)؛ لأنّ الجهل هو السائد فيها، وهو ما اتفقت الكلمة عليه، ولكنهم اختلفوا في المراد بهذا الجهل أهو من الجهل الذي هو ضدّ العلم، أو من الجهل الذي هو ضد الحلم، أو منهما معاً؟

وهذا ما نجده حين نبحث عن معنى الجاهلية في التنزيل العزيز والحديث واللغة والشعر:

٢. المائدة : ١٩.

٣. أنظر لسان العرب والصحاح والمعجم الوسيط: مادة فتر؛ وتفسير البيضاوي؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي بداية تفسيره سورة الحج. وفيه تفصيل لهذه الفترة بين الأنبياء في الآية ١٩ المائدة.

ففي المعجم الوسـيط وغيره من مصادر اللغة: جهل تعني الجهل الذي هو خلاف العلم... وقـد جهل فلان جهلاً وجهلة. وتجاهل: أي أرى من نفسـه ذلك وليس به. واستجهله: عدّه جاهلاً واستخفّه أيضاً. والمجهلة: الأمر الذي يحملك على الجهل. والمجهل: المفازة لا أعلام فيها. وجهل على غيره جهالةً وجهلاً: قسـا وتسـافه، وجاهله: سافهه. والمجهلة: ما يحمل الإنسـان على الجهل وجاء في الحديث الشريف: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة».

وفي لسـان العرب:... فالجَهْل لغةً نقيض العِلْم وقد جَهِله فلان جَهْـلاً وجَهَالة وجَهِلَ عليه وتَجاهل أظهـر الجَهْل، تَجاهَل: أرَى من نفسه الجَهْل وليس به، واسْتَجْهَله عَدَّه جاهلاً واسْتَخَفَّه أيضاً. والتجهيل أن تنسـبه إلـى الجَهْل، وجَهِل فـلان حَقَّ فلان وجَهِـلَ فلان عَلَيَّ، وجَهِـل بهذا الأَمر، والجَهَالة أن تفعل فعلاً بغير العِلْم... ورجل جاهِلٌ والجمع جُهْلٌ وجُهُلٌ وجُهَّل وجُهَّال وجُهَلاء... وقالوا: الجاهِلِيَّة الجَهْلاء فبالَغوا.. وقولهم كان ذلك في الجاهِلِيَّة الجَهْلاء هو توكيد للأول يشتق له من اسـمه ما يؤكد به، كما يقال وَتِدٌ واتِـدٌ وهَمَجٌ هامِجٌ ولَيْلة لَيْلاء ويَوْمٌ أيْوَم..   والجاهليّة اسـم مؤنّث منسـوب إلى جاهِل.. و مصدر صناعيّ من جاهِل.. وفي الحديث: «إنَّ من العِلْم جَهْلاً»، قيل: وهو أَن يتعلـم ما لا يحتاج إليه كالنجوم وعلوم الأوائل ويَدَعَ ما يحتاج إليه في دينه من علم القرآن والسـنّة، وقيل هو أن يتكلف العالم إلى علم ما لا يعلمه فيُجَهِّله ذلك.

وفي القرآن الكريم: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُـرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾.[٤] أي من السفهاء الحمقى..

٤. الأعراف : ١٩٩.

وقال ابن عاشـــور: و«الجهل» هنا ضد الحلم والرشد، وهو أشهر إطلاق الجهل في كلام العرب قبل الإسلام، فالمراد بالجاهلين السفهاء كلهم لأن التعريف فيه للاستغراق، وأعظم الجهل هو الإشراك، إذ اتخاذ الحجر إلهاً ســفاهة لا تَعْدِلها ســفاهة، ثم يشــمل كل سفيه رأي. وقد جمعتْ هذه الآية مكارم الأخلاق لأن فضائِل الأخلاق...

﴿... قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.[٥]

لأن الهــزو في مثل هذا من باب الجهل والســفه، هــذا ما ذكره الزمخشري أيضاً.

وقــال أبو حيان: الجهل: معروف، والفعل منه: جهل يجهل، قيل: وقد جمع على أجهال، وهو شاذ، ثم يذكر قول الشنفري، شاعر جاهلي مشهور من قبيلة الأزد اليمنية، ويعني اسمه (غليظ الشفاه):

ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أرى   سؤولاً بأطراف الأقاويل أنمل

ويحتمل أن يكون جمع جاهل، كأصحاب: جمع صاحب.

وفي الحديث الشريف: أنّ الرسول ﷺ قال لأبي ذر، وقد عير رجلاً بأمّه: «إنك امرؤ فيك جاهلية». جاء هذا فيما نســب إلى أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: سابيت رجلاً فعيرته بأمّه، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر أعيرته بأمّه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية...» أي فيك روح الجاهلية وطيشها، تغضب فلا تحلم. فمع إســلامه وجهاده وعطائه في ســبيل الله إلا أنه لا يزال فيه صفــة من صفات الجاهلية الذميمــة، وخصلة من خصالها القبيحة، وهي خلاف الحلم والخلق الطيب، فلا يسلم إسلام المرء ولا

---

٥. البقرة: ٦٧.

يصفو إيمان شخص حتى يدع صفات الجاهلية.

وفي الشعر:

فإنّ العرب كما أطلقت الجهل على ما قابل الحلم، قال ابن الرومي:

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

وقد جاء في معلقة عمرو بن كلثوم، وهو من شعراء الجاهلية:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

أي لا يسفهن أو يتسافه أحد علينا، فنعاقبه بما هو أعظم من سفهه...

وقد يتضمن البيت معنى الظلم والطيش..

وقال الفرزدق وهو من شعراء العصر الأموي:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنّاً اذا ما نجهلُ

وذكرنا ما قاله الشنفري.

أطلقته على عدم العلم: فقد وردت في الشعر بمعنى الجهل الذي هو ضد العلم أو المعرفة بالشيء.

قال السموأل:

.. فليسَ سواء عالم وجَهول.

وقال النابغة:

وليس جَاهل شيءٍ مثلَ مَن علما.

كقول سويد بن أبي كاهل اليشكري في صفة صحراء لا يعرف

مسالكها:

فركبناها على مجهولها بصلاب الأرض فيهنّ شجَع

واطلقتــه ثالثةً عليهما معاً، يقول ابن عاشــور في تفســيره: والجهل ضد العلم وضد الحلم وقد ورد لهما في كلام العرب، مســتدلاً بنفس ما قاله الشعراء الثلاثة. هذا وأن العلامة الطباطبائي بعد أن يذكر أن القرآن يسمي عهد العرب المتصل بظهور الإســلام بالجاهلية ، يقول : وليس إلا إشــارة منــه إلى أن الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم..» وســيأتي كلامه مفصلاً عن الجاهلية.[٦]

خطبتان و خطبٌ:

وخيــر ما يبين لنا معنى (الجاهلية) هــو الآيات القرآنية وبالذات الآيات الأربع الآتية، ولكن بعد أن نذكر خطبتين تصفان وتبيّنان مساوئ الجاهلية، وتبيّنان الفرق بينها والإسلام وقيمه التي بعث بها رسول الله ﷺ رحمةً للناس جميعاً:

الأولى:

قــول الصحابي الجليــل جعفر بن أبي طالب رضــوان الله عليه، وهو مــن أوائل المســلمين، وله مواقف شــهيرة، ومقامــات حميدة، وأجوبة ســديدة، وأحوال رشــيدة، حين راح يخاطب النجاشي، وبعد: «أيهــا الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنــا على ذلك حتى بعث الله إلينا رســولاً منا، نعرف نســبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن

---

٦. تفسير التحرير والتنوير: الآية ٦٧ البقرة.

وآباؤنا مــن الحجارة والأوثان، وأمرنا بصــدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحــش، وقول الزور، وأكل مال اليتيــم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشــرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشــرك به شــيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومُنــا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونــا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا

وحالــوا بيننا وبين ديننا، خرجنــا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلَم عندك أيها الملك».

ثم أوضح له الفرق بين ما كانوا عليه قبل الإسلام، وكيف أصبحوا بعد أن شــرّفهم الله بالإسلام: «أمّا الذي كنا عليه فتركناه، فهو دين الشيطان. كنا نكفر بالله، ونعبد الحجارة. وأمّا الذي تحوّلنا إليه فهو دين الله الإســلام، جاءنــا به من الله رســولٌ وكتاب مثل كتــاب ابن مريم موافقاً له».[٧]

الثانية:

مما جاء في خطبة سيدة نســاء العالمين الزهراء عليهــا الســلام في المســجد، حين راحــت تخاطب الصحابــة جميعاً: «... فرأى الأمم فرقاً فــي أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدةً لأوثانها، منكــرةً لله مع عرفانها، فأنار الله بأبي محمد ﷺ ظلمها،

٧ . أنظر السيرة النبوية لابن هشام؛ وحلية الأولياء؛ وغيرهما من المصادر، الهجرة إلى الحبشة.

وكشـف عن القلوب بهمها، وجلى عن الأبصار غممها، وقام في الناس بالهداية، فأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية، وهداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الطريق المستقيم...».

وقالـت أيضاً: «وكنتم على شـفا حفرة من النار مذقة الشـارب، ونهـزة الطامع، وقبسـة العجلان، وموطـئ الأقدام، تشـربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناسُ من حولكم، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بمحمدﷺ...».[٨]

أما الخطب فهي ما جاء عن الإمام عليٍّ عليه السلام، فقد تحدث نهج البلاغـة ـ د. صبحي الصالح، في أكثر مـن مقطع تضمنته خطب عديـدة: «الخطبة:٢ ، ص: ٤٧ ـ الخطبـة: ٢٦، ص: ٦٨ ـ الخطبة: ٩٥، ص: ١٤٠ـ الخطبـة: ١٦٦، ص: ٢٤٠ـ الخطبـة: ١٩١، ص: ٢٨٣» عن أهل الجاهلية، وواقعها الذي عاشـه النـاس قبل البعثة النبوية المباركة، والذي بدراسـته تدرك عظمة الإسـلام و عظمة ما بذله رسولهﷺ من جهود وهو يقود سفينة الدعوة المباركة تبليغاً وإنذاراً وتبشيراً، فتغييراً روحيـاً وأخلاقيـاً واجتماعياً... والتي كلّفته بها السـماء، وأنا هنا أذكر فقرات من الخطب المذكورة:

«أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ
بِهِمْ سَارَتْ أَعْلامُهُ، وَقَامَ لِوَاؤُهُ، في فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا
وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِهَا
وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا

فَهُـمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، في خَيْرِ دَارٍ، وَشَـرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُـهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَجَاهِلُهَا

٨ . الاحتجاج، للشيخ الطبرسي ١ : ١٣٥.

مُكْرَمٌ». [٩]

«إِنَّ اللهَ سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداً نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَةٍ خُشْنٍ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ». [١٠]

«بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ
وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ
وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الكِبْرِيَاءُ
وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلاءُ...». [١١]

«لِيَتأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، ولا تَكُونُوا كَجُفاةِ الجاهِلِيَّةِ: لا فِي الدِّينِ يَتفَقَّهُونَ، ولا عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ...». [١٢]

و قرآنيّاً:

نعود بعد هاتين الخطبتين وخطب أميرالمؤمنين عليه السلام إلى مفردة الجاهلية في التنزيل العزيز، حيث جاءت أربع مرات في القرآن المدني:

الظن: «ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ» والحكم: «حُكْمَ الْجاهِلِيَّةِ» والتبرج: «تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ» والحمية: «حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ» وكلها قد اقترنت بالعديد من المظاهر التي غدت سلوكاً تميّز به الجاهليّون، يقابله سلوك آخر تميّز

٩ . نهج البلاغة، من الخطبة : ٢.
١٠ . المصدر نفسه، من الخطبة : ٢٦.
١١ . المصدر نفسه، من الخطبة : ٩٥.
١٢ . المصدر نفسه، من الخطبة : ١٦٦.

به المســـلمون، فـ: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يقابله إيمان والتزام المســـلمين، و ﴿حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ يقابله حكــم الله عزّوجلّ، و ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ تقابله عفة المسلمات وحجابهنّ، و ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ تقابله تقوى المسلمين، وبالتالي هنا فئتان قد تميّزتا بظواهر، كل ظاهرة تعني شـيئاً مخالفاً لما عليه الأخرى، فالجاهلية تحكي سـلوكاً سلبياً وأمراضاً كانت قائمة في المجتمـع الجاهلي، ولم تنعدم آثارها في الحالة أو السـاحة المسلمة، بمعنى أنّ النفوس لم تشفَ منها بعدُ..، خصوصاً إذا عرفنا أنّ السـور التي تضمنت هـذا المصطلح هي سـور مدنية، بمعنـى أنها غير مكيـة، مما يـدل على أنّ هـذا المصطلح لم يكن قد راج واشـتهر في أول الإسلام في الفترة المكية، ولعله لعدم حصول أسـبابه في الفتـرة المذكورة، وإنما وقعت أسـبابه التي تحمـل صفاته في الفترة المدنية في الساحة المسلمة، فترة الحكم والمعارك وانتشـار الدعوة ودخول الناس في الدين أفواجاً.. فكان من الطبيعـي أن تبرز الأمراض والسـلبيات في حياة النـاس، وببصمات مفهوم الجاهلية، فراح الإسلام ينبه المسلمين عليها ويحذرهم منها، وأنها

من أمراض تلك المرحلة التي جاء الإسلام لخلاصهم منها ومن آثارها، فعليهم أن لا يعودوا لها أو لمثلها... وأحسـب ـ والقول لابن عاشور ـ أنّ لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهـل، وترغيباً في العلم، ولذلك يذكره القـرآن في مقامات الذمّ في

نحـــو قوله: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾.[١٣] ﴿ولاَ تَبَرَّجْـــنَ تَبَرُّجَ الجاهليّة الأولى﴾.[١٤] ﴿إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحَمِيَّة حَمِيَّة الجَاهلية﴾.[١٥]

وبعد ذلك راح المســـلمون يستعملونه، قال ابن عبّاس: «سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دِهاقاً، أي مملوءة متتابعة».

وفي حديث حكيم بن حِزام: أنّه ســـأل النّبي ﷺ عن أشـــياء كان يتحنّـــث بها في الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم. وقالوا: شـــعر الجاهلية، وأيّامُ الجاهلية. ولم يسمع ذلك كُلّه إلاّ بعد نزول القرآن وفي كلام المسلمين.[١٦]

من ذلك يتضح أنّ هذا المفهوم (الجاهلية) لم يكن مستعملاً إلا بعد أن ذكره التنزيل العزيز، وصاروا يستعملونه في كلماتهم حينما يذكرون أيامهم تلك، أو حين يخبرون عما فيها، وهكذا جاء عن عائشة أنها قالت: كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية. وعن مسلم قوله في مقدمة صحيحه: أنّ أبا عثمان وأبا رافع أدركا الجاهلية. وعن أبي رجاء العطـــاردي قوله: رأيت في الجاهلية قردة زنت. وعن عمر قوله: نذرت في الجاهلية..[١٧]

والآيـــات القرآنية التي جاء التحذير فيهـــا من بقايا الجاهلية ببيان عيوبهـــا وآثارها والنهي عـــن التلبس بصفاتها، نذكرها حســـب ترتيب

---

١٣ . المائدة: ٥٠.

١٤ . الأحزاب: ٣٣.

١٥ . الفتح : ٢٦.

١٦ . تفسير التحرير والتنوير، الآية : ١٥٤ آل عمران.

أقول: إنما ولد ابن عباس بعد البعثة، أي بثلاث سنين قبل عام الهجرة، فكيف سمع أباه في الجاهلية؟!.

١٧ . صحيح البخاري: باب أيام الجاهلية، الرقم: ٣٦١٩.

السور في التنزيل العزيز، ثمّ ندوّن ما عليه هذا المفهوم في مرحلة ما قبل الإسلام من صور ومظاهر سيئة:

أولاً: الظن:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.[١٨]

هنا طائفتان:

في معركة أحد وساحتها، وبعد هول الهزيمة، وما رافقها من ذعر واضطراب، أعقب ذلك سكون واطمئنان ونعاس لطيف، راح يغشى طائفةً مؤمنةً مطمئنةً، «فيما الطائفة الأخرى؛ فهم ذوو الإيمان المزعزع، الذين شغلتهم أنفسهم وأهمتهم؛ والذين لم يتخلصوا من تصورات الجاهلية، ولم يسلموا أنفسهم كلها لله خالصة، ولم يستسلموا بكليتهم لقدره، ولم تطمئن قلوبهم إلى أن ما أصابهم إنما هو ابتلاء للتمحيص، وليس تخلياً من الله عن أوليائه لأعدائه، ولا قضاء منه سبحانه للكفر والشر والباطل بالغلبة الأخيرة والنصر الكامل».[١٩]

إنهم الذين ﴿أهمتهم أنفسهم﴾ يعني المنافقين. مُعَتَّب بن قُشير

---

١٨ . آل عمران : ١٥٤.
١٩ . في ظلال القرآن، لسيد قطب: الآيات.

وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعاً في الغنيمة وخوف المؤمنين، فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسفون على الحضور، ويقولون الأقاويل كما عن القرطبي، أو حَدَّثتهم أنفسهم ـ كما في التحرير والتنوير ـ بما يدخل عليهم الهَمّ، وذلك بعدم رضاهم بقدر الله، وبشدة تلهّفهم على ما أصابهم، وتحسّرهم على ما فاتهم مِمّا يظنونه، منجياً لهم لو عملوه: أي من الندم على ما فات، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسهم في اضطراب وتحرّق يمنعهم من الاطمئنان...

وقيل معنى ﴿أهمّتهم﴾، أدخلت عليهم الهَمّ بالكفر والارتداد، وكان مُعَتِّب بن قُشير رأسَ هذه الطائفة، حين كان صاحب هذه المقالة. قال الزبير بن العوّام: غشيني النُّعاس فسمعت معتّب بن قشير يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا. فحكى القرآن مقالته كما قالها، وأسندت إلى جميعهم؛ لأنهم سمعوها ورضوا بها.

وجملة: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي ظنّ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّة، كما عن القرطبي. ويقول الرازي: المسألة الثالثة في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾ قولان: أحدهما: أنه كقولك: حاتم الجود، وعمر العدل، يريد الظن المختص بالملة الجاهلية، والثاني: المراد ظن أهل الجاهلية.

ابن عاشور: إمّا استئناف بياني نشأ عن قوله: ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾ وإمّا حال من ﴿طائفة﴾، و﴿غير الحق﴾ منتصب على أنّه مفعول ﴿يظنون﴾ كأنّه قيل الباطلَ. وانتصب قوله: ﴿ظن الجاهلية﴾ على المصدر المبيّن للنوع، إذ كلّ أحد يعرف عقائد الجاهلية إن كان متلبّساً بها أو تاركاً بها.

وفي المراد من الظن المذكور؛ أنهم كانوا يظنون بالله غير الظن الحقّ الذي يحقُّ أن يظن به، يقول الرازي: المسألة الثانية: ﴿غَيْر الحق﴾

فــي حكم المصدر، ومعنــاه: يظنون بالله غير الظــن الحق الذي يجب أن يظــن به، و «ظن الجاهلية» بدل منــه، والفائدة في هذا الترتيب أن غيــر الحق أديان كثيرة، وأقبحها مقالات أهل الجاهلية، فذكر أولاً أنهم يظنون بالله غير الظن الحق، ثم بين أنهم اختاروا من أقسام الأديان التي غير حقة أركها وأكثرها بطلاناً، وهو ظن أهل الجاهلية، كما يقال: فلان دينه ليس بحق، دينه دين الملاحدة.

ويقول ابن عاشــور: أنّهم ذهبت بهم هواجسهم إلى أن ظنوا بالله ظنوناً سيئة.

وفي هذا تعريض بأنّهم لم يزالوا على جاهليتهم لم يخلصوا الدين لله، وقد تجسّد هذا الظنُّ المذمومُ المتمثل بتخيلات باطلة، واعتقادات خاطئة، وهي أوهام الجاهلية، ويظهر كلُّ هذا في:

الجملة الأولى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ...﴾.

يقول ابن عاشور: وهي بدل اشتمال من جملة ﴿يظنّون﴾ لأنّ ظنّ الجاهلية يشــتمل على معنى هذا القول. وهل هنا للاســتفهام الإنكاري بمعنــى النفي، بقرينة زيادة (من) قبل النكرة، وهي من خصائص النفي، وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سبباً في مقابلة العدوّ. حتّى نشأ عنه ما نشأ، وتعريض بأنّ الخروج للقتال يوم أُحُد خطأ وغرور، ويظنّون أنّ محمداً ﷺ ليس برسول إذ لو كان لكان مؤيّداً بالنصر.

وفي الجملة الثانية: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِــهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ﴾. وهي علامــة نفاقهم فجملة: ﴿يخفون﴾ حال مــن الضمير في ﴿يقولون﴾، أي يقولون ذلك في حال نيّتهم غيرَ ظاهرِه، فـ: ﴿يخفون في أنفســهم ما لا يبدون لك﴾ إعلان بنفاقهم كما يذكر ابن عاشور.

وفي الجملة الثالثة: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾.

أي من شأن الخروج إلى القتال، أو من أمر تدبير النّاس شيء، أي رأي، ما قتلنا ههنا، أي ما قتل قومنا. وليس المراد انتفاء القتل مع الخروج إلى القتـال في أحُد، بل المراد انتفاء الخروج إلى أحُد الّذي كان سـبباً في قتل من قُتل، كما تدلّ عليه قرينة الإشارة بقوله: «ههنا»، فالكلام كناية. وهذا القول قاله عبد الله بن أُبَي ابن سلول لمّا أخبروه بمن استشهد من الخزرج يومئذ، وهذا تتصّل من أسـباب الحرب وتعريض بالنّبيﷺ، ومن أشـار بالخروج من المؤمنين الّذين رغبوا في إحدى الحسـنيين. ويقول: وإنّما كان هذا الظنّ غيرَ الحقّ لأنّه تخليط في معرفة صفات الله وصفات رسولهﷺ وما يجوز وما يستحيل، فإنّ لله أمراً وهدياً وله قدَر وتيسـير، وكذلك لرسوله الدعوة والتشريع وبذل الجهد في تأييد الدّين وهو في ذلـك معصوم، وليس معصوماً من جريان الأسـباب الدنيوية عليه، ومن أن يكون الحرب بينه وبين عدوّه سـجالاً، قال أبو سـفيان لهرقل وقد سـأله: كيف كان قتالكم له؟ فقال أبو سفيان: ينال منّا وننال منه، فقال هرقل: وكذلك الإيمان حتّى يتمّ. فظنّهم ذلك ليس بحقّ.

ثـم يواصل قوله: وقد بيّن الله تعالى أنّه ظـنّ الجاهلية الّذين لم يعرفوا الإيمان أصلاً فهؤلاء المتظاهرون بالإيمان لم يدخل الإيمان في قلوبهم فبقيت معارفهم كما هي من عهد الجاهلية.

وأما الشـيخ الطبرسـي في مجمعـه فيقول: ... «يظنـون».. أي يتوهمـون أنّ الله لا ينصر محمداًﷺ وأصحابـه كظنهم في الجاهلية؛ وقيـل: كظن أهل الجاهلية وهم الكفـار والمكذبون بوعد الله ووعيده، فكان ظن المنافقين كظنهم، وقيل ظنهم ما ذكر بعده من قولـه: «يقولون هل لنا من الأمر من شيء» فهذا تفسير لظنهم يعني يقول بعضهم لبعض هل لنا من النصر والفتح والظفر نصيب؟ قالوا ذلك على سبيل التعجب

والإنكار، أي أنطمع أن يكون لنا الغلبة على هؤلاء، أي ليس لنا من ذلك شيء. وقيل: إنّ معناه إنا أخرجنا كرهاً ولو كان الأمر إلينا ما خرجنا؛ عن الحسن. وكان هذا القائل عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير وأصحابهما؛ عن الزبير بن العوام وابن جريج.

﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنّ الأمر كله لله﴾ ينصر من يشاء ويخذل من يشاء، لا خاذل لمن نصره ولا ناصر لمن خذله، وربما عَجّل النصر وربما أخره لضرب من الحكمة، ولا يكون لوعده خلف، والمراد بالأمر في الموضعين النصر؛ ﴿يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ أي يخفون في أنفسهم الشك والنفاق وما لا يستطيعون إظهاره لك؛ ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر﴾ أي من الظفر كما وعدنا ﴿شيء ما قتلنا ههنا﴾ أي ما قتل أصحابنا شكاً منهم فيما وعده الله تعالى نبيه ﷺ من الاستعلاء على أهل الشرك وتكذيباً به...

إذن، "فالذين تهمهم أنفسهم، وتصبح محور تفكيرهم وتقديرهم، ومحور اهتمامهم وانشغالهم... لا يعرفون الله على حقيقته، فهم يظنون بالله غير الحق، كما تظن الجاهلية... فنفوسهم ملأى بالوساوس والهواجس، حافلة بالاعتراضات والاحتجاجات".[20]

ثانياً: الحكم:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.[21]

تبيّن الآية أنّ للجاهلية حكماً، قطعاً يكون مغايراً لحكم تريده السماء؛ فهو حكم مبنيٌّ على أسس منبثقة من واقع يوصف إن لم يكن كله فأغلبه بصفات الجاهلية، التي بني عليها بعيداً عن قيم العدل

---

٢٠ . أنظر في ظلال القرآن: الآيات.

٢١ . المائدة : ٥٠.

والإنصاف والمساواة؛ فهنا حكمان كما يقول سيد قطب: «إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية. ولا وسط بين الطرفين ولا بديل.. حكم الله يقوم في الأرض، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر.. أو أنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى، ومنهج العبودية.. فأيهما يريدون؟ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾؟.. وبعد أن يذكر: أنّ معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية ـ كما يصفها الله ويحددها قرآنه ـ هي حكم البشر للبشر، لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله..».

يستنتج: أنّ الجاهلية ـ في ضوء هذا النص ـ ليست فترة من الزمان؛ ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام.. إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية.[٢٢]

ويقول الشيخ الطبرسي: ﴿أفحكم الجاهلية﴾ أي عبدة الأوثان تطلبون وأنتم أهل الكتاب. وقيل: المراد به كل من طلب غير حكم الله، فإنه يخرج منه إلى حكم الجاهلية، وكفى بذلك أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم؛ ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ أي لا أحد حكمه أحسن من حكم الله ﴿لقوم يوقنون﴾.[٢٣]

---

٢٢ . في ظلال القرآن: الآية.
٢٣ . تفسير مجمع البيان: الآية.

ثالثاً: التبرّج:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى...﴾.[٢٤]

التبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها، مأخوذ من البرج، وهو مأخوذ من السّعة، يقال: في أسنانه بَرَج إذا كانت متفرّقة؛ وحقيقته إظهار ما ستره أحسن، كما يقول القرطبي في تفسيره للآية.

ويقول الشيخ الطبرسي: أي لا تخرجن على عادة النساء اللاّتي في الجاهلية، ولا تظهرن زينتكنّ كما كنّ يظهرن ذلك. وقيل: التبرج التبختر والتكبّر في المشي؛ عن قتادة ومجاهد. وقيل: هو أن تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فتواري قلائدها وقرطيها فيبدو ذلك منها عن مقاتل. وقيل: إنّ معنى تبرج الجاهلية الأولى أنهم كانوا يجوّزون أن تجمع امرأة واحدة زوجاً وخِلاً فتجعل لزوجها نصفها الأسفل ولخلّها نصفها الأعلى يقبّلها ويعانقها.

التبرج كما عند ابن عاشور: إظهار المرأة محاسن ذاتها وثيابها وحليها بمرأى الرجال.. فنسب إلى أهل الجاهلية، إذ كان قد تقرر بين المسلمين تحقير ما كان عليه أمر الجاهلية إلا مَا أقرّه الإسلام.[٢٥]

وأما ﴿الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ فقد اختلفت الأقوال في تحديدها والمراد منها.

يقول الشيخ الطبرسي: والمراد بالجاهلية الأولى ما كان قبل الإسلام عن قتادة. وقيل: ما كان بين آدم عليه السلام ونوح عليه السلام ثمانمائة سنة عن الحكم. وقيل: ما بين عيسى ومحمد؛ عن الشعبي. قال: وهذا لا يقتضي أن يكون بعدها جاهلية في الإسلام، لأنّ الأول اسم للسابق

٢٤ . الأحزاب: ٣٣.

٢٥ . أنظر مجمع البيان؛ والتحرير والتنوير: الآية.

تأخَّر عنه غيره أو لم يتأخر.

قال القرطبي: فقيل: هي الزمن الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام، كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ، فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال.

وقال الحكم بن عيينة: ما بين آدم ونوح، وهي ثمانمائة سنة، وحُكيت لهم سِير ذميمة. وقال ابن عباس: ما بين نوح وإدريس. الكلبيّ: ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام. قيل: إنّ المرأة كانت تلبس الدّرع من اللؤلؤ غير مَخِيط الجانبين، وتلبس الثياب الرقاق ولا تواري بدنها. وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى. الشعبي: ما بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله. أبو العالية: هي زمان داود وسليمان؛ كان فيه للمرأة قميص من الدرّ غير مخيط الجانبين. وقال أبو العباس المبرد: والجاهلية الأولى كما تقول الجاهلية الجهلاء، قال: وكان النساء في الجاهلية الجهلاء يُظهرن ما

يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخِلِّها، فينفرد خِلّها بما فوق الإزار إلى الأعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل. وقال مجاهد: كان النساء يتمشّين بين الرجال، فذلك التبرج. قال ابن عطية: والذي يظهر عندي أنه أشار للجاهلية التي لحِقنها، فأمِرْن بالنَقلة عن سيرتهنّ فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غَيْرة عندهم؛ وكان أمر النساء دون حجاب، وجَعْلُهَا أولى بالنسبة إلى ما كنّ عليه؛ وليس المعنى أن ثَمّ جاهلية أخرى. وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدّة التي قبل الإسلام، فقالوا: جاهليّ في الشعراء. وقال ابن عباس في البخاريّ: سمعت أبي في الجاهلية يقول؛ إلى غير هذا.

ومن هذا نعلم أنّ المرأة في الجاهلية لم تكن تحتجب الحجاب الذي يريده الشرع، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾.[٢٦]

قال القرطبي: وهذا قول حسن. ويعترض بأنّ العرب كانت أهل قَشَف وضَنْك في الغالب، وأنّ التنعم وإظهارَ الزينة إنما جرى في الأزمان السابقة، وهي المراد بالجاهلية الأولى، وأنّ المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المِشية على تَغْنيج وتكسير وإظهار المحاسن للرجال، إلى غير ذلك مما لا يجوز شرعاً. وذلك يشمل الأقوال كلّها ويعمّها فيلزمن البيوت، فإن مست الحاجة إلى الخروج فليكنّ على تبذُّل وتستُّر تام.[٢٧]

---

٢٦ . الأحزاب : ٥٩.

٢٧ . جامع الأحكام، للقرطبي: الآية.

رابعاً: الحمية:

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.[٢٨]

الحميــة لغةً: تعني الأنفة. الحميــة الأنفَة والإنكار، يقال: فلان ذو حمية منكرة إذا كان ذا غضب وأنفة. وعبر عن القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت بالحمية، فقيل: حميت على فلان أي غضبت عليه، قال تعالى: ﴿حمية الجاهلية﴾.

وقال ابن عاشــور: والحمية: الأنفة، أي الاســتنكاف من أمرٍ لأنه يــراه غضاضة عليه وأكثر إطلاق ذلك على اســتكبار لا موجب له، فإن كان لموجــب فهو إباء الضيم. ولما كان صدهم الناس عن زيارة البيت بلا حق، لأنّ البيت بيت الله لا بيتهم، كان داعي المنع مجرد الحمية.[٢٩]

مجمع البيان: ثم قال ســبحانه ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميــة﴾ إذ يتعلــق بقوله لعذبنا، أي لعذبنا الذيــن كفروا وأذنّا لك في قتالهــم حين جعلوا في قلوبهم الأنفة التي تحمي الإنســان؛ أي حميت قلوبهم بالغضب، ثم فسر تلك الحمية فقال: ﴿حمية الجاهلية﴾ أي عادة آبائهــم في الجاهلية أن لا يذعنوا لأحــد ولا ينقادوا له، وذلك أنّ كفار مكــة قالوا: قد قتل محمــد وأصحابه آبائنا وإخوانـنــا، ويدخلون علينا في منازلنا، فتتحــدث العرب أنهم دخلوا علينا على رغم أنفنا، واللات والعــزى لا يدخلونها علينا، فهذه الحمية الجاهلية التي دخلت قلوبهم.

٢٨ . الفتح: ٢٦.

٢٩ . المعجم الوسيط : ٢٠١؛ مجمع البيان، للطبرسي: الآية؛ مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني :١٣٢؛ التحرير والتنوير: الآية.

وقيل: هي أنفتهم من الإقرار لمحمدﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، حيث أراد أن يكتب كتاب العهد بينهم؛ عن الزهري.

لقد بيّنت هذه الآية أنّ مشركي مكة لم ينطلقوا من منهج صحيح أو عقيدة سليمة أو عرف مشهود في منعهم رسول اللهﷺ ومن معه من المسلمين من دخول المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذي ساقوه أن يبلغ محله الذي ينحر فيه، كي لا تقول العرب: إنه دخل مكة عليهم عنوة. فكان صدهم هذا لرسول اللهﷺ وللمسلمين، قد أسدلوا ستاراً بينهم وبين الحقيقة المتمثلة بالإيمان بالله ورسوله ورسالته، وكذا في ردّهم عبر مندوبهم سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم، ولصفة رسول اللهﷺ في أثناء كتابة معاهدة صلح الحديبية، مبنياً على حميتهم المقيتة، النابعة من جاهليتهم، وجفوتهم عن الحقّ والخضوع له.. وقد أبدل الله المؤمنين، وحفظهم من هذه الصفة بأن أحلَّ محلها السكينة، والتقوى:

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

إنها "السكينة الوقورة الهادئة،كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة. المطمئن بما فيه من ثقة. المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يتبطر ولا يطغى؛ ولا يغضب لذاته، إنما يغضب لربه ودينه. فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خشع وأطاع. في رضى وطمأنينة".[٣٠]

هذا وقد ذكروا أنّ «الحمية» وهي في الأصل من مادة «حمي»

---

٣٠ . أنظر في ظلال القرآن: الآية.

ومعناها الحرارة، ثم صارت تستعمل في معنى الغضب، ثم استعملت في النخوة والتعصب الممزوج بالغضب أيضاً..

* فهي تستعمل في: المعنى المذموم أحياناً «مقرونة بالجاهلية أو بدونها».

فقد ذكرها الإمام علي عليه السلام مراراً في خطبته القاصعة ذاماً بها إبليس ومن صدّقه، محذراً من العصبيات وأحقاد الجاهلية وهي الحمية آمراً بإنهائها:

«اعترضته الحمية فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله... صدقه به أبناء الحمية وإخوان العصبية وفرسان الكبر والجاهلية...

فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية فإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته ونزعاته ونفثاته».[٣١]

* وفي المدح حيناً آخر، فتكون عندئذ بمعنى التعصب في الأمور الإيجابية البناءة! فالإمام عليّ عليه السلام قال وهو ينتقد ويشكو بعض أصحابه: «مُنيتُ بمن لا يطيع إذا أمرتُ، ولا يجيب إذا دعوتُ، أما دينٌ يجمعكم ولا حَميةُ تُحشمكم»، أي تُغضبكم على أعدائكم.[٣٢]

وعلى كل حال فلا شك أنّ وجود مثل هذه الحالة في الفرد أو المجتمع باعث على تخلف ذلك المجتمع وتكبيل العقل والفكر الإنساني ومنعه من الإدراك الصحيح والتشخيص السالم.. وأساساً فإنّ انتقال السنن الخاطئة من جيل لآخر ومن قوم لآخرين ما كان إلا في ظل هذه الحمية المشؤومة، ومقاومة الأمم للأنبياء والقادة غالباً ما تكون عن هذه السبيل أيضاً..

٣١ . نهج البلاغة، الخطبة : ١٩٢.

٣٢ . نهج البلاغة، الخطبة : ٣٩.

إنَّ خير سـبيل لمقاومة هذه السـجية السـيئة والنجاة من هذه المهلكة العظمى، هو السـعي الجاد لرفع المسـتوى الثقافي والفكري والإيماني لكل فرد وقـوم وجماعة.. وفي الحقيقة أنَّ القـرآن عالج هذا المرض بالآيـة المتقدمة ـ محـل البحث ـ حيث يتحدث عـن المؤمنين ذوي السـكينة والتقوى، فحيث توجـد التقوى فلا توجد حميـة الجاهلية، وحيث توجد حمية الجاهلية فلا تقوى ولا سكينة.[٣٣]

إنَّ التأمـل في هذه المفردات الأربع وما تشـي به، حين أجملت وصف مجتمع الجاهلية في أهم خصائصها: العقدية والقانونية والخلقية والاجتماعية وبشـكل واضح، حيث إنهـا تحدثت عن كيان أو نظام له تصوراته الخاصة به وأحكامه وتقاليده، وهي على النقيض من الإسلام عقيـدةً وشـريعةً ومنهاجاً، فكل آية من هذه الآيات راحت تشـير إلى ظواهر بارزة تتشـكل منها جميعاً الصورة الكاملة لذلك المجتمع الذي يقابـل مجتمعاً حديثاً متميزاً ومختلفاً في قيمـه ومناهجه وتصوراته.. فظـن الجاهلية: يوضح الجانب العقدي عند أهل الجاهلية، المتمثل في الجهل بالله تعالى وصفاته وأحكامه..

وحكم الجاهلية: يشـير إلـى طبيعة قانونية جاهلية تسـود ذلك المجتمـع، القائم على الأهواء والظلـم والجور، والمختلف جذرياً عن المجتمع الإسـلامي، والبعيد عن مبـدإ الحق والعدل المتمثل في الآية:

﴿..وَإِذَا حَكَمْتُـم بَيْنَ النَّـاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾.

وتبرج الجاهلية: يشـير إلى الجوانب الخلقيـة والاجتماعية التي

٣٣ . أنظر تفسير الأمثل، للشيخ مكارم الشيرازي: الآية.

تُبنـى عليها علاقـة الرجل بالمرأة يومذاك، وتبعاتهـا على واقع الناس وحياتهم، وهي تختلف كلياً عما جاء به الإسلام لبناء العلاقة بينهما...

وحمية الجاهلية: تشـير إلى طبيعة العقلية الاجتماعية السائدة في الجاهلية، والأسس التي تحكم العلاقات بين الأفراد، والقائمة على مبدإ العصبية والحميـة، التي تولد عاطفة منحرفة ومواقف متشـنجة، وهي بالتالـي لا تلتقي مع الأسـس التـي يقيمها الإسـلام المتمثلة في الآية: ﴿إنما المؤمنون إخـوة﴾، وغيرها التي تدعو إلى المحبة والتسـامح ، ونبذ التعالي والفظاظـة والغلظة في التعامل مع الآخـر المختلف فضلاً عن المتفق...

ومع هـذا نلخـص أقوالهم فـي هـذا المفهوم (الجاهلية):

إنها نسبة إلى الجاهل؛ لأنّ الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وتوحيده وبالدين وشـرائعه.. وهي بالتالي تقابل كلمة الإسـلام، التي تـدل على الخضوع والطاعة لله عزّوجـلّ وما يطوى فيها من معرفة به، وما يترتب على هذه المعرفة من سلوك قويم..

وهي تطلق على العصر السـابق للإسلام مباشرة، وكل ما فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية واقتراف ما حرم الدين الحنيف من موبقات.

وهـي الحال التي كانـت عليها العـرب ـ وهم: حضر وكانـوا قلـة وبدو وهم الكثرة ـ قبل الإسـلام مـن الجَهْل بالله سبحانه ورسوله ﷺ وشرائع الدين والمُفاخَرَة بالأنساب والكِبْر والتَّجَبُّر وغير ذلك...

ـ الجاهِليَّـة: مـا كان عليـه العـرب قبل الإسـلام مـن الجَهالة والضَّلالة.

ـ ما كان عليه العرب قبل الإسـلام من الجهالة والضَّلالة وتحكيم العصبيَّـة والوثنيَّـة: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَـرُوا فِي قُلُوبِهِـمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّـةِ﴾، ولهذا قالوا: جاهليَّةٌ جَهْلاء: ممعنـة في الجهالة والضلال. وفيه توكيد للأَوَّل كما ذكرنا، يُشْتَقُّ له من اسمه ما يُؤَكَّدُ به..

ـ إنها من جهل الناس بدين نبي الله إبراهيم عليه السلام..

ـ وتعني الجهل بمعنى تجاوز الحق وعدم معرفته.

ـ فيما ذهب بعـض إلى أنّ المقصود بالجاهليـة الجهل بالقراءة والكتابة. وهذا أراه من توابع عدم العلم.

يقول ابن عاشور: "قد تقرر بين المسلمين تحقير ما كان عليه أمر الجاهلية إلا مَا أقرّه الإسلام.. فكل شيءٍ لم ينل حظه من الدين الحنيف فهو من أمر الجاهلية".[34]

وأخيراً، وقبل أن أنتقل إلى ما ذكره صاحب تفسير الميزان، أقول: لقـد كان الكفر والفسـوق والعصيان من سـمات الجاهلية ومظاهرها، وأينمـا حلّت، وجدت الجاهلية بأشـكالها، وكم هو تامٌّ ما بينته الآيات القرآنية حول هذه المساوئ، والتحذير من مخاطرها، ودعوتها لاجتنابها، ونكتفي منها بهذه الآية:

﴿...وَلَـٰكِـنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُـمُ ٱلإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَـرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ

٣٤ . أنظر المزهر، للسيوطي؛ وبلوغ الأرب ١: ١٥؛ والمعجم الوسيط: ١٤٤؛ لسان العرب: جهل؛ وغيرها من معاجم اللغة؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور: آل عمران، الآية؛ والأحزاب: ٣٣؛ تفسير البحر المحيط: ١٥٤.

وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ...﴾.[٣٥]

فالكفر والفسوق والعصيان وهي من آثار الجاهلية بنوعيها الخلقي والمعرفي، كرّهها الله لهم وحبّب إليهم الإيمان، وهو الهدف الذي ينشده الدين الحنيف. ثمّ إنّ هذه السيئات وعلى رأسها الكفر، هو الذي ولد العديد من الموبقات، كشيوع الربا والتطفيف في الكيل والميزان، والخمر وانتشارها بين الجاهليين يعرفه كل من قرأ الشعر الجاهلي، إضافةً إلى كل من الميسر والأنصاب والأزلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[٣٦]

وولد الجرائم البشعة كوأد البنات، تلك العادة الوحشية، التي ندّد بها القرآن مراراً وشدد في النهي عنها تشديداً عظيماً، يأتينا الكلام عنها. هذا إضافةً إلى الآيات التي راحت تحثّهم على العلم والتعقل والتدبر في آيات الله وفي أنفسهم وفي مخلوقاته... وهي دعوات لإعمال العقل الذي عزفت نفوسهم عنه، وانصرفت وزهدت به، وإعمال العلم الذي كانوا به جاهلين، فعاشوا في ظلمات عديدة سواء على مستوى العلم أو مستوى الحلم، على المستوى المعرفي أو الأخلاقي، حتى جاء الإسلام لينتشلهم منها عبر حياة طيبة عامرة بجميل العقائد والأحكام، وفنون المعارف والآداب... هذا وقد ذكر العلامة السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان كلاماً مفصلاً عن الجاهلية ـ لم أجده عند غيره ـ في الجزء الرابع: ١٥٦ ـ ١٥٨ بعد الآية: ٦ من سورة النساء، وهذه خلاصته:

---

٣٥. الحجرات: ٧.

٣٦. المائدة: ٩٠.

القرآن يســمي عهد العرب المتصل بظهور الإسلام بالجاهلية، وليس إلا إشارة منه إلى أن الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم، والمسيطر عليهم في كل شــيء الباطل، وكذلك كانوا على ما يقصه القرآن من شــؤونهم في الآيات الأربع: آل عمران: ١٥٤، المائدة:٥٠، الفتح: ٢٦، الأحزاب:٣٣.

فالحبشــة وهي نصرانيــة تحيط عرب الجزيرة جنوبــاً، والروم وهي نصرانيــة غرباً، والفرس وهم مجوس شمالاً، وفي غير ذلك الهند ومصر وهما وثنيتــان، وفي أرضهم طوائف من اليهود، والعرب وثنيون، يعيش أغلبهم عيشــة القبائل، فأوجد لهم هذا اجتماعاً همجياً بدوياً فيه أخلاط من رسوم اليهودية والنصرانية والمجوسية وهم سكارى جهالتهم. والعشائر يعيشون بالغزوات، وشــن الغــارات، واختطاف كل ما في أيــدي آخرين، فلا أمن بينهم ولاسلامة، والأمر إلى من غلب، والملك لمن وضع عليه يده.

أما الرجال: فالفضيلة بينهم سفك الدماء، والحمية الجاهلية، والكبر، والغرور، واتباع الظالمين، وهضم حقوق المظلومين، والقمار، وشرب الخمر، والزنــا، وأكل الميتة، وأما النســاء: فقد كن محرومات مــن مزايا المجتمع الإنســاني لا يملكن من أنفســهن إرادة، ولا من أعمالهن عملاً، ولا يملكن ميراثــاً، ويتزوج بهنّ الرجال من غير تحديــد بحدّ كما عند اليهود وبعض الوثنيــة، و كن يتبرّجن بالزينة، ويدعون من أحببن إلى أنفســهنّ، وفشــا فيهنّ الزنا، والســفاح حــتى في المحصنات المزوجات منهــنّ، ومن عجيب بروزهنّ أنهنّ ربما كنّ يأتين بالحجّ عاريات. وأما الأولاد: فكانوا ينسبون إلى الآباء، لكنهم لا يورثون صغاراً ويذهب الكبار بالميراث، ومن الميراث زوجة المتوفى، ويحرم الصغار ذكوراً وإناثاً والنساء.

والأقويــاء يتولون أمــر اليتيم، ويأكلون ماله، ولــو كان اليتيم بنتاً

تزوجوها وأكلوا مالها ثم طلقوها وخلوا سبيلها فلا مال تقتات به، ولا راغب في نكاحها ينفق عليها. وكان القتل شائعاً بينهم؛ لدوام الحروب، والغزوات، والغارات. وكان من شقاء أولادهم أنّ بلادهم خربة، وأراضيهم قفرة بائرة، يسرع الجدب والقحط إليها، فكان الرجل يقتل أولاده خشية الإملاق، وكانوا يئدون البنات، وكان من أبغض الأشياء عند الرجل أن يبشر بالأنثى.

فإضافة إلى كل ذلك سيطرة الدول الكبرى كإيران والروم والحبشة، على أغلب ما في شبه الجزيرة العربية، وانتشار الأمية والاعتقادات الخرافية بينهم، يستفاد هذا كله من سياق الآيات القرآنية بمكة أولاً وبالمدينة ثانياً، ومما وصفتهم به ذمّاً وملامةً ونهياً، ومما يذكره التاريخ، وأوجز كلمة وأوفاها، أجمل القرآن في معناها جميع هذه التفاصيل هي (الجاهلية).

انتهى تلخيص ما ذكره العلامة الطباطبائي ﷺ.

إذن فالجاهلية كما أنها مشتقة من الجهل ضدّ الحلم، فهي مشتقة من الجهل ضدّ العلم، وبالتالي فإنّ الجهل المذكور يتضمن الأمرين معاً، فسواء أكان هذا الجهل ضدّ العلم كما يذهب إليه فريق، أو ضدّ الحلم كما يذهب إليه الأكثر، فقد تفشّى الجهل في أوساط عديدة من ذلك المجتمع، فإن يعتقد الإنسان بخرافات وأساطير وأوهام لا أصل لها، فهو ضدّ العلم والمنطق السليم، وأن يخرج عن طريق الحقّ فيأخذ ما ليس له، ويرتكب الموبقات فهو عين الجهالة والسفه..

وبالتالي فإني أميل إلى أنهم كما في جهل خلقي، فهم أيضاً في جهل معرفي، ولعلّي لا أكون مخطئاً إن قلت هناك ملازمة بينهما، أو أنّ كلاً منهما يولد الآخر، وهذا ما يمكننا استفادته حين تابعنا مفردة الجاهلية واشتقاقاتها فيما مضى من اللغة وآيات التنزيل العزيز والأحاديث

والمواقف النبوية وفي ديوان الشعر العربي، ومن أقوال بعض المفسرين والمؤرخين..، كما أنَّ من الصعوبة بمكان التفريق بينهما، خصوصاً وأنَّ هذه الظواهر المتصفة بالجهل المقابل للعلم، والجهل المقابل للحلم، أو قلْ بالجهل المعرفي والجهل الخلقي والسلوكي، متداخلة، كما لا يعدم وجود حالات علمية أو منشآت كسدِّ مأرب، أو أناس يعرفون القراءة والكتابة وبالتالي لهم متابعات معرفية بما يناسب عصرهم، ووجود حالات تتسم بالحلم والخلق النبيل، وبعبارة أخرى لا يمكن أن يكون الجهل ضدَّ العلم مطلقاً، كما لا يمكن أن يكون الجهل ضدَّ الحلم عاماً في جميع مفاصل تلك المرحلة من حياة العرب، فكما هناك حليمٌ

هناك سفيهٌ، وكما هناك أمينٌ هناك خائن، وكما هناك متسامح هناك متعسف، وهناك من يحترم المرأة، وهناك من يئدها وهي صغيرة، وبالتالي لم يكن وأدُ البنات حالة عامة، لكنها تركت آثارها الخطيرة على واقع الحياة، ومثلت خطورةً واعتداءً سافراً على إرادة الله تعالى، على كيانٍ إنساني بريءٍ خلقه الله تعالى؛ ليكمل به مشروع السماء في بناء حياة طيبة..

وهناك من يدعو إلى خلق ذميم، وهناك من يقدّر الحلم وأهله، وإلا لو كان عرب مكة ويثرب وما حولهما من بلاد واسعة، يشكلون مجتمع جاهلية أخلاقية مطلقة، فبأي معيار أخلاقي عرف رسول الله ﷺ بأنه الصادق الأمين، وبأي دافع آمن المسلمون الأوائل بصدقه ﷺ ودعوته، وهذا دليل على أنهم كانوا يميزون بين الصدق والكذب، وأنَ الأول ممدوح هو وصاحبه، والآخر مذموم هو ومن عمل به، وهكذا نظرتهم إلى الأمانة والخيانة، وكانوا يعرفون قيمة الخلق الطيب ويفرقون بينه وبين الخلق الخبيث، وقد قالها رسول الله ﷺ: «إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق». وكان أبو طالب رضوان الله عليه يقول لقريش: «يا آل قريش اتبعوا محمداً ﷺ ترشدوا فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق»، أو: «... يا معشر قريش آمِنُوا بالذي جاء به محمد ﷺ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق».

وفي الكشاف للزمخشري في تفسيره للآية: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾،[٣٧] أي ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم. وقيل: لما نزلت

---

٣٧ . الأعراف :١٩٩.

الآية سأل جبريل عليه السلام (ما هذا؟) فقال: «لا أدري حتى أسأل [العالم]، ثم رجــع فقال: «يا محمد» إنّ ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وعــن جعفر الصادق: «أمر الله نبيه عليه الصلاة والســلام بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها».

وذكــر الرازي في تفســيره: عن علي عليه الســلام أنه قال: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعرض نفســه على قبائل العرب، فخرج وأنا معه وأبــو بكر، فوقفنا على مجلس عليهــم الوقار فقال أبوبكر: ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الشهادتين وإلى أن ينصروه فإنّ قريشــاً كذبوه، فقال مقرون بن عمرو: إلام تدعونا أخا قريش، فتلا رســول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـانِ﴾ الآية، فقال مقرون بن عمرو: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاســن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك».[٣٨]

فالاعتقادات الباطلة والضلالات، والمســاوئ والجهالة، والعيوب كالسفه والنزق والطيش والكبر والقتل والغزو والجور والتجاوز، وهي من المظاهر المذمومة في تلك المرحلة من تاريخ بلاد الحجاز والجزيرة، والتي لم ينجو منها أضعف خلق الله تعالى وهو الرضيع اليتيم فضلاً عن غيره... لو لم تكن بدرجة خطيرة، وشرّها فاش في تلك الساحات، ولها آثار مدمرة على الإنسان وكيانه، لما استحقت أن توصف بصفة الجاهلية والتحذير منها..

صحيح أنّ هناك أموراً ممدوحة، لا ينبغي لنا نســيانها أو التغافل

---

٣٨ . أنظر تفسير مجمع البيان، للطبرسي؛ والكشاف، للزمخشري؛ والتفسير الكبير، للرازي؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور، الآية :٩٠، النحل.

عنها كسقايتهم الحجيج، وعمارتهم المسجد الحرام، وهو شيءٌ جيد، لكنه لا يرقى إلى الإيمان بالله تعالى.. كما في الآية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.[39]

وكتقليد حقن الدماء ولو لحين، والذي يتمثل برعايتهم والتزامهم بأنّ مكة بما فيها الكعبة حَرم آمن، فهي البلد الحرام وهي البيت الحرام.. فكانوا يتوقفون عن الأخذ بالثأر فيها؛ لأنه أمر لا يجوز مهما كانت الأسباب والدواعي، والتزامهم أيضاً بالأشهر الحُرُم، وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، حين كانوا يتوقفون فيها عن القتال والأخذ بالثأر ويجعلونها شهور هدنة، وإن كانوا أحياناً ينتهكون بعضها ويعوضونه بشهور أخرى، وهو ما يسمونه: «النَّسِيء»، ولكنهم يتوقفون فيها عن المعارك وإراقة الدماء، والأخذ بالثأر، ونعرف أهمية توقفهم هذا إذا عرفنا أنّ الثأر تقليد جاهلي راسخ في نفوسهم، من لم يأخذ بثأره يصبح موضع عار وسخرية بينهم.. كما أنّ حياتهم وإن كانت مابين وقائع وحروب وغزوات سفكت فيها دماؤهم وانتهكت فيها حرمهم، إلا أنها لم تخلو من عهود ومواثق وأحلاف، حفظت سلمهم وأمنهم تاريخياً طويلاً، جاءت بفضل عقلائهم وحلمائهم.. وما حلف الفضول إلا مثالاً رائعاً حين تعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه.. وقد شهده رسول الله ﷺ قبل بعثته، وعمره عشرون سنة، ونسب إليه أنه قال: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».[40]

٣٩ . التوبة : ١٩.

٤٠ . أنظر الجزء الثاني من البداية والنهاية، لابن كثير.

فلا تجعلنا عيوب الجاهلية نغفل عمن ضربت بحلمهم وحكمتهم الأمثال، وهم عديدون.[٤١]

و عما ظهر فيهم من بيان وفصاحة وبلاغة تتوفر عليها لغتهم العربية الجميلة، ويشهد لهم بهذا تحدي القرآن الكريم لهم في أخصّ خصائصهم، التي يتقنونها بألوانها وضروبها حين قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.[٤٢]

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.[٤٣]

وكذا الآية : ٢٣ البقرة. كان هذا في مكة المكرمة. والمسلمون في ضعف، عندما اتهم كفارها رسول الله ﷺ بأنه كذب على الله وافترى عليه القرآن، أو كانوا في ريب منه، فأمره الله تعالى أن يرد عليهم ويطلب منهم ـ وهم أرباب البلاغة ـ بأن يأتوا بعشر سور، ثمّ بسورة واحدة مثل القرآن.

إنّ لغتهم، التي نزل بها القرآن الكريم، موضع اعتزاز لهم حتى غدت موائدها تشغل بالهم فصاغوها قصائد ودواوين شعر عظيمة نموذجها الرائع المعلقات على جدران الكعبة، وما تتضمنه حياتهم من خصائص وأخلاق كريمة تمّم الإسلام مكارمها وأيدها كالصدق و الوفاء والنجدة

---

٤١ . أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي ١٥ : ٣٥٠؛ والبداية والنهاية، لابن كثير ٢: أخبار العرب.

٤٢ . هود: ١٣.

٤٣ . يونس : ٣٨.

وحماية الذمار والجرأة والشجاعة واحترام الجار والكرم.. راحت تملأ حياتهم يتفاخرون بها نثراً ويتغنون بها شـعراً.. كما صارت قصائدهم بـكل أولوانها من وصف ومديح وغزل ورثاء وهجاء وفخر وحماسـة وأمثال وحكم وقصص تشكل ثقافتهم وإعلامهم، راحوا يتسابقون إلى الإبداع فيهـا والتفاخر بها، حتى غدوا يقيمون لهـا محافل ومؤتمرات أدبية كسـوق عكاظ، وهي قبل أن تكون تجارية صارت منتديات أدبية يتوافد إليها الشـعراء والتجار في آنٍ واحد.. وبجانب كلٍّ هذا لم تخلو حياتهـم من الصفات السـيئة، كاللهو واللعب والعبث وشـرب الخمر ولعـب القمار، والوأد، والعصبية القبليـة، والتعالي، والتفاخر، والتجاوز على حقوق الآخرين وأموالهم، حتى غدا الغزو والنهب والسلب وسيلة عيش عند بعضهم، وكلها شكلت لهم حياةً ذميمةً...

وكمـا صاغوا تلك الخصائص الطيبة شـعراً ونثـراً احتلت هذه العادات الذميمة أماكن لها من أدبياتهم الشعرية والنثرية.. حتى طفحت دواوينهم الأدبية بكل جيد من الخلال ورديء..

إنَّ عدم العلم وانتفاء المعرفة، وغياب الحكمة والرشـد والحلم، وغياب العقل، وقوة المنطق، أدى إلى الاسـتبداد والظلم والتسـلط بين أهل تلك المرحلة سواء أكانوا داخل كل قبيلة أو في بطونها فضلاً عن القبائـل القريبة أو البعيدة فيما بينها، وجعلتهم أكثر سـفاهةً وغلوّاً في الجهالة وما يستتبعها من المنكرات والتجاوزات.. فالجهل ينصب على السلوك المنافي للعقل والعلم والمنطق، إنه المبدأ الذي راح يحكيه كلٌّ من زهير بن أبي سُلمى المزني، وهو من أشهر شعراء الجاهلية:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

والشاعر الآخر، ولعلّه الفرزدق من شعراء العصر الأموي:

أحلامنا تزن الجبال رزانة　　　وتخالنا جناً إذا ما نجهل

صورٌ وظواهرُ أخرى :

إنَّ أخطـر ما يتعرض لـه الناس هو الأوهام، والعقائد الفاسـدة، والخرافات، والأساطير والبدع، وجميعها تعيش وتترعرع غالباً في الوسط الجاهل.. وما دعاة الفتنة والعصبيـة والتمرد والتطرف والغلوّ والعدوان والإرهاب إلا نتيجة لعقائد فاسـدة وأوهام وبدع، ولا شك أنّ العلاقات القائمة على الجهل والظلم، تعدُّ من أهم أسباب التخلف العام في ذلك الواقـع وفي أي واقع آخر، ولهذا نجد سـيد قطـب، لايعدها فترة من الزمـان، ولكنها وضع من الأوضاع، هذا الوضع يوجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسـلام، والمناقضة للإسـلام... فالعبودية لغير الله جرت أهـل الجاهلية إلى كل الضلالات السابقة، وتحكيم الأهواء، والعادات، والتقاليد.[٤٤]

إنَّ تلك الفترة الزمنية التي سـبقت الإسـلام، وقد سمّاها التنزيل العزيز بالجاهلية، وسميت عند مؤرخي التاريخ والأدب بالعصر الجاهلي، اتفق الجميع على أنها عصر سـادت فيه الموبقات والتجاوزات، كالبغي والظلم والقهر والفساد ووأد البنات والربا وأكل مال اليتيم بالباطل، يدل عليها إضافةً إلى ما تقدم، صيغة المبايعة، التي جاءت بها هذه الآية: ١٣ سورة الممتحنة:

﴿يآأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَـيْئاً وَلَا

٤٤ . في ظلال القرآن: الآية: ٥٠ المائدة؛ وانظر أخبار العرب؛ وبالذات باب جهل العرب في الجزء الثاني من كتاب البداية والنهاية، لابن كثير، ففيه عن جهلهم الكثير.

يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾. وسميت ببيعة النساء، وقد كانت تتمُ فعلاً من قبل بعض مع رسول الله ﷺ للدخول في الدين الجديد، فحينما جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام، قال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تبرّجي تبرّج الجاهلية الأولى»، وكذا غيرها من النساء.[٤٥]

وعن عبادة بن الصامت قال: وافى موسم الحج من الأنصار اثنا عشر رجلاً ممن أسلم منهم في المدينة، وقال عبادة: بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عزّوجلّ إن شاء عذب، وإن شاء غفر.[٤٦]

كما أنّ ما يدل على سوء ذلك الواقع الجاهلي اعتقاداتهم وعباداتهم التي كانوا يمارسونها، فلقد كانت الوثنية ضاربةً في الجزيرة العربية، والوثنية تتمثل في عبادة الأصنام والأوثان، حتى وصلت بهم الجهالة إلى عدم الاكتفاء بها، فراحت أيديهم تصنع تماثيل من التمر يعبدونها،

---

٤٥ . أنظر تفسير ابن كثير للآية: ١٣ الممتحنة، بتفصيل.

٤٦ . أنظر بيعة النساء وبيعة العقبة الأولى في سيرة ابن هشام ٢ : ٤٠ ـ ٤٢ ؛ ومسند أحمد وغيرهما.

فاذا جاعوا أكلوها.. فأي ربٍّ هذا الذي يؤكل؟! لا قدرة له أن يدفع عن نفسه، فكيف يدفع عنهم ويغنيهم من ظمإٍ أو جوع؟! لكنها الجهالة، التي جاء الإسلام لإنهائها وانتشالهم منها.

فيما راحت قبائل أخرى يعبدون بعض الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، بل كان منهم من يسجد للشمس والقمر، ونهاهم القرآن عن مثل هذا السجود، وأمرهم بالسجود لله تعالى، كما في الآية: ٣٧ من سورة فُصِّلَتْ، مما يدل على أنّ هناك من كان يسجد لهما.

ومنهم من كان يعبد (الشعرى).

وقيل: إنّ خزاعة كانت تعبدها وأول من عبدها أبو كبشة أحد أجداد النبيﷺ من قبل أمهاته وكان المشركون يسمونهﷺ ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في الدين كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعرى.. وهو ما ذكره الشيخ الطبرسي في تفسير الآية: ٤٩ النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾.

وأما ابن عاشور فقد ذكر في تفسيرها:

«الشِّعْرَى» الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدّة الحرّ، وهما الشّعريان العَبُور التي في الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التي في الذراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل. وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربًّا لغيره؛ لأنّ العرب كانت تعبده؛ فأعلمهم الله جلّ وعزّ أنّ الشِّعْرى مربوب وليس بربّ. وآختلف فيمن كان يعبده؛ فقال السدي: كانت تعبده حِمْير وخُزَاعة. وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبيّﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبيّﷺ آبن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم؛ وقالوا: ما

لقينا من آبن أبي كبشــة!... وهكذا قال أبو سفيان يوم الفتح حينَ وقف في بعض المضايق وعســاكر رسول الله ﷺ تمرّ عليه: لقد أمِرَ أمْرُ آبنِ أبي كبشــة.. وقد كان من لا يعبد الشّــعْرى من العرب يعظّمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضَى أيْلُولُ وارتفعَ الحَرُورُ   وأخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُورُ

وقيل: إنّ العرب تقول في خرافاتها: إنّ سُهيْلاً والشّعرى كانا زوجين، فانحدر سُــهَيل فصار يمانياً، فاتبعته الشّعرى العَبُور فعبرت المجرة فسميت العبور، وأقامت الغُمَيْصاء فبكت لفقد سُــهَيل حتى غَمِصت عيناه؛ فسمّيت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى.[٤٧]

وهنــاك من العرب من كان يعبد الجنّ وبعــض عبد الملائكة... فيما كان بعضهــم على دين النصرانيــة، فيما اليهودية انتشــرت بينهم في خيبر ويثرب..

ومــع هذا كله، فهناك أمرٌ يجدر ذكره أنّ من العرب من رفض عبادة الأصنام، ولم تَرُقْ لهم سخافاتُها، وهدتهم فطرتهم فعدلوا عن عبادة الأوثان، وعبدوا الله على ملة إبراهيم عليه السلام وكانوا يسمّون الحنفاء.

ظاهرة الشرك:

تلك ظواهر ذكرها القرآن المجيد، شكلت سنناً خطيرة عشعشت فــي الواقــع الاجتماعي لتلك المرحلة التاريخية مــن حياة العرب قبل ظهور الإســلام، وكانــت تتضمن إضافةً إلى ما ذكــر أعلاه من عادات ومعاملات مليئة بالسوء والفحشاء والمنكر، ما هو أبرزها وأخطرها إنه (الشــرك بالله تعالى) فهو مصدرها، ويتمّ عبر عبــادة الأوثان والأصنام

٤٧ . أنظر تفسيري مجمع البيان، للطبرسي؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور: الآية.

التي كانت توضع في الكعبة لتعبدها القبائل حسب مسمياتها: هبل و اساف ونائلة واللات ومناة والعزى، وهي من أشهر أصنامهم. وهناك غيرها من الأحجار، وجميعها لا يضر ولا ينفع: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾.[48]

وقد جاء في كتب التفسير:

* أنَّ اللات كانت لثقيف بالطائف (وقيل: بنخلة) تعبدها قريش، وأوردوا ما زعمه الزاعمون من أنها سُمِّيَتْ باسم رجل كان يَلُتُّ عندها السمن بالسَّوِيق بالطائف ويُطْعِمه الحاجّ، وكانوا يعكفون على قبره فجعلوه وثناً..

* والعُزّى فهي لغطفان، وهي شجرةُ سَمُرَةٍ، وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ إليها بعد الفتح خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها، كما تقول بعض الروايات، شيطانة منشورة الشعر تصيح: يا ويلاه، وهي واضعة يدها على رأسها، فجعل يضرب بالسيف حتى قتلها، ورجع فأخبر رسولَ الله ﷺ فقال: تلك العُزّى، ولن تُعْبَد أبداً..

* وأما مَنَاة فهي صخرة كانت لِهُذَيل وخُزاعة، وعن ابن عباس أنها كانت لثقيف، وكأنها سُمِّيَتْ: "مناة" لأنَّ دماء النسائك كانت تُمْنَى عندها، أي تُرَاق..

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؟!

إذن فهم مع اعتقادهم بوجوده تعالى، لكنهم أبوا إلا أن يشركوا به آلهـةً أخرى، فعقولهم المغلقة عَزّ عليها أن تفهم أنه تعالى لا يمكن أن

---

٤٨ . الفرقان : ٣.

يكون إلا إلهاً واحداً، وهذا جزءٌ من الاضطراب الذي تعيشه نفوسهم نتيجة عدم المعرفة أو الجهالة التي أحاطت بهم، حتى كانوا لا ينفكون عن ترديد ما قد صار لهم شعاراً: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾؟!

إنها دعوة لعبادة إله واحد بدل آلهة متعددة، تلك التي نادى بها رسول الله ﷺ، فلم يكونوا يتصورون ذلك، فهم في حياتهم اعتادوا أن يعبدوا آلهة متعددة، بدأت بصنمٍ وانتهت بأصنام، وغدوا يعبدون ما يأكلون، ولديهم مزيد، فلهذا فوجئ عرب تلك المرحلة أن تكون دعوة رسول الله ﷺ قائمة على أنّ الإلهَ الذي يدعوهم إليه وإلى عبادته هو إلهٌ واحدٌ لا شريك له، فعجبوا واستبسلوا في الدفاع عن معبوداتهم ومصالحهم فيها..

يقول ابن عاشور: أي يتعجب منه كما يتعجب من شعوذة الساحر. و﴿عُجاب﴾، وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيراً. والعجب انفعال في النفس ينشأ عن علم بأمر غير مترقب وقوعه عند النفس...[٤٩]

سبب النزول:

وقد ذُكر في سبب نزول هذه الآية أنّ أشراف قريش وهم خمسة وعشرون، منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم، وأبو جهل، وأبيّ وأمية ابنا خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث أتوا أبا طالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فإنه سفه أحلامنا وشتم آلهتنا فدعا أبو طالب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك. فقال: «ماذا يسألونني» قالوا: دعنا

٤٩ . أنظر التحرير والتنوير: الآيات.

وآلهتنا ندعك وإلهك فقال ﷺ: «أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم». فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها. فقال: «قولوا لا إله إلا الله» فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً فنزلت هذه الآيات: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْآنِ ذِي ٱلذِّكْرِ ... أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. فيما ذكر الواحدي في أسبابه أنَّ الله تعالى أنزل فيهم هذه الآيات إلى قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾، أي الآية: ١٢ من سورة ص.

وروي أنَّ النبي ﷺ استعبر ثم قال: «يا عم! والله لو وضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أنفذه أو أقتل دونه».

فقال له أبو طالب: «امض لأمرك فوالله لا أخذلك أبداً».[٥٠]

وقد جاءت الآيات القرآنية، التي راحت تنبههم إلى سخف هذا اللون من التفكير والاعتقاد، وتكرر حملتها على الشرك، وتؤكد الدعوة إلى التوحيد جاء هذا في آيات كثيرة؛ منها:

٥٠ . مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآيات.

﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.[٥١]

لكنّهم تشــبّثوا بما في رؤوسهم، حتى استخدموا العنف دفاعاً عما ورثوه من آبائهم.. والشيء الغريب أنهم مع معرفتهم بأنَ الله هو الخالق:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.[٥٢]

﴿وَلَئِنْ سَــأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّــمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.[٥٣]

كانوا يستكبرون: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.[٥٤]

كانوا يشــمئزون: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾.[٥٥]

كانوا يَسْتَبْشِرُونَ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.[٥٦]

ـ كانوا يزعمون أنَ لَهُ الْبَنَات: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾! فتهكم القرآن الكريم على شــركهم، ومزاعمهم، وعقليتهم المتخلفة، التي سوّلت لهم الادعاء أنَ الســبب الــذي دفعهم لعبادة هذه الأوثــان كونها بنات الله.. عجيب أمرهم كانوا يعبدونها ويزعمون أنها تشــفع لهم عند الله تعالى رغم كراهيتهــم خِلْقَة الإناث ونفورهم من البنــات بل ووأدهنّ، فجاء التهكــم: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُــمْ بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ

---

٥١ . الذاريات: ٥١.

٥٢ . الزخرف: ٩.

٥٣ . العنكبوت: ٦٣.

٥٤ . الصافات: ٣٥.

٥٥ . الزمر:٤٣.

٥٦ . الزمر:٤٣.

لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾؟![57]

وأراد الله أن يَلْفِتهم إلى سخافة تفكيرهم وحُمْق تصرفهم حين ينسبون إليه الإناث اللاتي يكرهونهن بل يقتلونهن أحياناً، ثم يختصّون أنفسهم بالذُّكْران: ﴿ألكُمُ الذَّكرُ ولهُ الأُنثى﴾؟! ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾؟![58]

ـ كانوا يزعمون أنّ له شركاء من الجن والملائكة والولد والجزء.

وهكذا ظلّت نفوسهم المضطربة لا تكتفي بأن تجعل الأصنام وحدها بنات الله وشركاءه، بل هناك الجن والملائكة والولد والجزء أيضاً:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.[59]

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.[60]

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.[61]

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾.[62]

وتتوالى ردود التنزيل العزيز على مزاعمهم الباطلة تلك:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ

---

٥٧ . الزخرف: ١٥ – ١٩.

٥٨ . الطور: ٣٩.

٥٩ . الأنعام :١٠٠.

٦٠ . الصافات : ١٥٨.

٦١ . الأنبياء : ٢٦.

٦٢ . الزخرف : ١٥.

تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.[٦٣]

وهكـــذا في الصافات: ١٤٩ـ ١٥٨. والزخرف: ١٥ـ ١٩. والنجم: ٢٧ و ٥١. والأنبيـــاء: ٢٦ـ ٢٨، إضافةً إلى ما حملته الآيات الأخرى من إجابات وردود على اعتقادتهم الفاســدة، وهي من أخطر سمات وسنن الجاهلية التي هم عليها.

وتتلخص أهداف عبادتهم لها بأنها:

تقربهم إلى الله:

فقد كانوا يزعمون أنهم يعبدونها لتقربهم إليه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِـصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِـهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُـمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّـهَ يَحْكُـمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُـمْ فِيهِ يَخْتَلِفُـونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَـنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.[٦٤]

تشفع لهم:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُـفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ...﴾.[٦٥]

وفي مقابل كل هذا، واصل القــرآن الكريم تفنيد مزاعمهم هذه، وأن كل مـــا يعبدونه من دونه تعالى لا يملكــون لهم نفعاً ولا ضرًا ولا شفاعة وليس لأوثانهم أيّ نصيب منها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ

---

٦٣. الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٠.

٦٤. الزمر: ٣.

٦٥. يونس: ١٨.

وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.[٦٦]

ومــن اعتقاداتهم عدم إيمانهم بيوم البعث، فلا آخرة يؤمنون بها، ولا حســاب يعتقدون به، وبالتالي لا عقاب ولاثواب، فليس عندهم إلا الدنيا، التي إذا ما انتهت فقد انتهوا: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾.[٦٧]

وبالتالــي هو ينكرون مَلَك الموت وقَبْضَ الأرواح بأمر الله، وكلُّ ما حولهم من الدهر يُفْنِي ولا يعيد من يُفْنيه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلا الدَّهْرُ﴾.[٦٨]

فلايعــود من يموت إلى الحياة كــرةً أخرى بعد أن يصبح عظاماً ورُفَاتاً: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.[٦٩]

وإلا فأين آباؤنا الأولون؟ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.[٧٠]

وراحوا بمزاعمهم هذه يجادلون رسول الله ﷺ مجادلة لا تنتهي، ويبدو أنها كانت تتصف بالقوة والشــدة والعنــاد، يتضح هذا من كثرة الآيــات القرآنيــة وهي تعــرض أقوالهم ومزاعمهم وهــي في جوانب منها تتضمن نكرانهم وســخريتهم من الآيات، التي تتحدث عن البعث والنشــور والحســاب... ففي خبر أنَ أبيّ بن خلف أتى النبيَّ ﷺ بعظمٍ

---

٦٦ . يونس: ١٨.
٦٧ . المؤمنون : ٣٧.
٦٨ . الجاثية : ٢٤.
٦٩ . الإسراء : ٤٩.
٧٠ . المؤمنون : ٨٣.

بالٍ يفتّته بيده، وقال: أترى الله يُحْيِي هذا بعدما رُمّ؟ فقال ﷺ: نَعَمْ، ويبعثك ويدخلك النار.

ورُوِيَ في تفسير الآية: ٩٠ ـ ٩٥ الإسراء، أنّ عُتْبَة وشَيْبَة وأبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا البخْتَرِيَّ والوليد بن المغيرة وأبا جهل وعبد الله بن أبي أمية وأمية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تُعْذَروا به. فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدا في أمره بَدَاء (أي غيّروا موقفهم منه)، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعزّ عليه تعنّتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا والله لا نَعْلَم رجلاً من العرب أدْخَلَ على قومه ما أدخلتَ على قومك. لقد شتمت الآباء وعِبْتَ الدين وسَفَّهْتَ الأحلام وشتمت الآلهة...، إلا أن قالوا له: سل لنا ربّك... وأن يبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن ممن يُبْعَث لنا منهم قُصَيّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صَدُوقاً، فنسألهم عما تقول: حَقٌّ هو؟ فإن صنعتَ ما سألناك صدّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

وكذا هم في سبب نزول قوله عزّوجلّ: ﴿وَأَقسَموا بِاللهِ جَهدَ أَيمانِهِم لا يَبعَثُ اللهُ مَن يَموتُ﴾.[٧١] أنه كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دَيْن فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلّم به: والذي أرجوه بعد الموت. فقال المشرك: وإنك لتزعم إنك لَتُبْعَث بعد الموت؟ فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله تعالى هذه الآية.[٧٢]

---

٧١ . النحل : ٣٨.

٧٢ . أسباب النزول، للواحدي؛ ومجمع البيان وغيره من كتب التفسير.

ولم تترك مزاعمهم من دون ردود عليها وتفنيد لها، نكتفي بهاتين الآيتين خوف الإطالة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.[٧٣]

وكلٌّ هذا يعدُّ من وسائل العلاج التي جاء بها الإسلام لما هم عليه من جهل وجهالة ومزاعم واعتقادات باطلة كانت تعشعش في حياتهم الجاهلية.

الحجُّ:

لقد كانت مواقف الجاهلية في موسم الحج وأشهره خليطاً ممزوجاً من الأضداد والمتناقضات، ابتليت بها مجتمعاتها في غابر الأزمان، يظهر ذلك جلياً في بعض مواقفهم وتجمعاتهم، حتى راحت مصادر التاريخ تنقل لنا مظاهر الجاهلية في الحج ومقاصده وهي عبارة عن:

تجمعات مكثفة، يقصدها الناس من شتّى أنحاء البلاد. منها سوق عكاظ، وكان يُقام في شهر ذي القعدة نحواً من نصف شهر. ثم يأتون بعد ذلك موضعاً دونه إلى مكة، يقال له: سوق مجنة، فيُقام فيه السوق إلى آخر الشهر. ثم يأتون موضعاً قريباً منه، يقال له: ذو المجاز، فيقام

٧٣. الحج: ٧ ـ ٥.

فيه السوق إلى يوم التروية. ثم بعد ذلك يَصْدُرون منه إلى منى.

كانــت تجتمع في هذه الأســواق قبائل العــرب، ووفود ملوكهم يحملون الهدايا والقرابين إلى الأصنام، التي يلوذون بها، ويتفاخرون بما هم عليه من الوثنية والأنصاب والأزلام، والمنكرات وبالخمر والميسر، وبالســلب والنهب، وبقتل الأنفــس البريئة دون ما ذنب أو جريرة كوأد البنــات، ويعدون كل ذلك من المكرمــات التي تهون دونها الحُرُمات. يتخرج من محافلهم هذه رجال ونساء هم غارقون في الشرك والتضليل والجهالة وسوء الأخلاق...

* المفاخرة

تعدُّ المفاخرة من مظاهر الجاهلية في الحج! فقد كان القوم فــي جاهليتهم، بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم، يجتمعــون فيتفاخــرون بمآثــر آبائهــم وفضائلهم، ويذكرون محاسن أيامهم:

كان أبــي يطعم الطعام.

كان أبــي يضرب بــالسيف.

كان أبــي جَزّ نواصي بنــي فلان.

كان أبــي عظيم الجفنة، عظيم القدر، كثير المال.

كان أبــي يُطعــم، ويحمــل الحمــالات ويحمــل الديات.

فأمرهم الله فــي الإســلام أن يكون ذكرهم بــالثناء والشــكر والتعظيــم لربهم دون غيره، فنزل قوله عزّوجلّ:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾.[٧٤]

فعن مجمع البيان: روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنهم كانوا إذا فرغوا من الحج يجتمعون هناك ويعدّون مفاخر آبائهم ومآثرهم ويذكرون أيامهم القديمة وأياديهم الجسيمة؛ فأمرهم الله سبحانه أن يذكروه مكان ذكرهم آباءهم في هذا الموضع ﴿أو أشد ذكراً﴾ أو يزيدوا على ذلك بأن يذكروا نعم الله ويعدّوا آلاءه ويشكروا نعماءه لأن آباءَهم وإن كانت لهم عليهم أياد ونعم فنعم الله عليهم أعظم وأياديه عندهم أفخم ولأنه المنعم بتلك المآثر والمفاخر على آبائهم وعليهم وهذا هو الوجه في تشبيهه هذا الذكر الواجب بذلك الذكر الذي هو دونه في الوجوب، وهو قول الحسن وقتادة.

وعن السدي أنّ العرب بمنى بعد فراغهم من الحج كان أحدهم يقول: أللهم إنّ أبي كان عظيم الجفنة، عظيم القدر، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ويقول ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يُطعم، ويحمل الحمالات ويحمل الديات.. ليس لهم ذكر غير فِعال آبائهم، فأنزل الله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً﴾.

وفي سبب نزولها يذكر الرازي أيضاً، أنّ ابن عباس روى أنّ العرب كانوا عند الفراغ من حجتهم بعد أيام التشريق يقفون بين مسجد منى وبين الجبل، ويذكر كل واحد منهم فضائل آبائه في السماحة والحماسة وصلة الرحم، ويتناشدون فيها الأشعار، ويتكلمون بالمنثور

---

٧٤ . البقرة : ٢٠٠.

من الكلام، ويريد كل واحد منهم من ذلك الفعل حصول الشهرة والترفع بمآثر سلفه، فلما أنعم الله عليهم بالإسلام أمرهم أن يكون ذكرهم لربهم كذكرهم لآبائهم، وروى القفال في «تفسيره» عن ابن عمر قال: طاف رسول الله ﷺ على راحلته القصوى يوم الفتح يستلم الركن بمحجنه ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس إنَ الله قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وتفككها، يا أيها الناس إنما الناس رجلان برّ تقي كريم على الله أو فاجر شقي هين على الله، ثم تلا: ﴿يَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.[75] أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

* **إما ثيابُ الحرم وإما عراةً!**

لقد كان جزءٌ من سياسة زعماء مكة منع الحجيج القادمين إلى مكة من جلب طعام معهم؛ ليشتروا طعامهم من أسواق مكة، ويجبروا على استهلاكه بالكامل.. وتمنعهم أيضاً من إجراء مناسك الحج كالطواف إلا بثياب يشتروها من حرم مكة بدل ثيابهم، وأنه لا تصح المناسك إلا بها، فثياب (أهل الحرم) أو (الحمس من قريش) هي وحدها التي يجوز الطواف بها، لا غيرها، وعليهم بعد الطواف ألقاء تلك الثياب؛ لأنه لا يجوز استعمالها أو بيعها وشراؤها، وغايتهم من هذا الإجراء هو استمرار شرائهم لملابس الاحرام من تجار مكة، ويتعين على الحاج رجلاً كان أو امرأةً ـ إن امتنع عن شرائها ـ أن يطوف بالبيت عارياً، وفعلاً طافوا عراة بالبيت، حتى جاء قول امرأة تطوف بالبيت عارية إلا من قطعة قماش صغيرة تستر عورتها:

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

---

٧٥. الحجرات : ١٣.

فيما ينقل مسلم في صحيحه: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون عراة إلا أن يعطيهم الحمس ثياباً فيعطي الرجال الرجال و النساء النساء، فعن ابن عباس أنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتعلق على سفلها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله.*

وأما القرطبي في تفسيره، فيقول: وهذه المرأة هي ضُباعة بنت عامر بن قُرْط؛ قاله القاضي عياض. وفي صحيح مسلم أيضاً عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْس، والحُمْسُ قريش ومـا ولدت، كانوا يطوفون بالبيت عُراةً إلا أن تعطيهم الحُمْسُ ثياباً فيعطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ. وكانت الحمس لا يخرجون من المُزْدَلِفة، وكان الناس كلهم يقفون بعرفات.

في غير مسلم: ويقولون نحن أهل الحَرَم، فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في ثيابنا، ولا يأكل إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا. فمن لم يكن له من العرب صديق بمكة يُعيره ثوباً ولا يَسارٌ يستأجره به كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف بالبيت عُرياناً، وإما أن يطوف في ثيابه؛ فإذا فرغ من طوافه ألقى ثوبه عنه فلم يمسه أحد. وكان ذلك الثوب يسمى اللَّقَى؛ قال قائل من العرب:

كَفَى حَزَنا كَرِيٌّ عليه كأنَّه لَقًى بين أيدي الطائفين حَرِيمُ

---

*. روح المعاني، للآلوسي.

فكانــوا على تلــك الجهالة والبدعــة والضلالة حتى بعــث الله نبيه محمــداً ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿يَابَنِيَ آدَمَ خُـذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ الآية. وأذّن مؤذّن رسول الله ﷺ ألا لا يطوف بالبيت عُرْيَان.[٧٦]

فيما الزمخشــري، وبعد أن يذكــر أنهم كانوا يطوفون عراة، ينقل عن طاووس، لم يأمرهــم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدهم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت عنــه، لأنهم قالوا: لا نعبــد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب.[٧٧]

❋ ظاهرتا المكاء والتصدية:

﴿وَمَـا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنـدَ ٱلْبَيْتِ إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُـواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.[٧٨]

ونقف أكثر عندهما، فســورة الأنفال مدنيــة، ولكن جاء عن ابن عباس وقتادة أنّ ســورة الأنفال مدنية غير سبع آيات نزلت بمكة: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾، إلى آخرهن أي من الآية: ٣٠ حتى الآية ٣٦، وهذا يعني أنّ الآية محل الكلام :٣٥ هي ضمن الآيات الســبع وبالتالي فهي مكية. وقيل: نزلت السورة بأسرها في غزاة بدر عن الحسن وعكرمة.

قال ابن حجر: وأما نزول شــيء من سورة بمكة، ثم يتأخر نزول أصل الســورة إلى المدينة، فلم أره إلا نادراً، فقد اتفقوا على أنّ الأنفال مدنية، لكن قيل: إنّ قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا...﴾، نزلت

---

٧٦ . الجامع لأحكام القرآن: الآية.

٧٧ . الكشاف، للزمخشري.

٧٨ . الأنفال : ٣٥.

بمكة، ثم نزلت سورة الأنفال بالمدينة. وهذا غريب جدّاً.

أنظر مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ وفتح الباري بشرح البخاري ٩: ٣٨؛ وتلخيص التمهيد، للشيخ هادي معرفة ١: ١٠٢ ـ ١٠٣، فهو ينكر مزعومة الاستثناء رأساً حيث لا دليل عليه البتة.

إعراب هذه الآية:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، الواو استئنافية أو عاطفة، وما نافية، وكان واسمها، وعند البيت الظرف متعلق بمحذوف حال، وإلا أداة حصر، ومكاء خبر كان، وتصدية عطف على مكاء..

ثمّ يقول الدرويش: والمعنى أنهم وضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، وهم مشبكون بين أصابعهم، يصفرون فيها ويصفقون. وهذا أسلوب بليغ من أساليب العرب على حد قول الفرزدق:

وما كنت أرجو أن يكون عطاؤه

أداهم سودا أو محدرجة حمرا

أي: ما كنت أظن أن يكون عطاؤه قيوداً سوداً أو سياطاً مفتولة حمرا، ويروى: «سمرا»، فوضع القيود والسياط موضع العطاء، ووضع الشاعر الرجاء موضع الظن، وأطلق العطاء على العقاب مجازاً.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، الفاء الفصيحة، وذوقوا فعل أمر وفاعل، والعذاب مفعول به، والباء للسببية، وما مصدرية، أي: سبب كفركم.[٧٩]

---

٧٩ . أنظر إعراب القرآن الكريم، الدرويش؛ الآية.

هذا في إعراب الآية، وأما لغةً:

فالمكاء في لسان العرب لابن منظور هو التالي:

المُكاء مُخفف الصُفير مَكا الإِنسان يَمْكُو مَكْواً ومُكاء صَفَرَ بفِيه.

قال بعضهم: هو أَن يَجمع بين أَصابع يديه ثم يُدخِلها في فيه، ثم يَصْفِر فيها، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ابن السكيت المُكاءُ الصّفير، قال: والأَصوات مضمومة إِلا النِّداء والغِناء.

وأَنشد أَبو الهيثم لحسان صَلاتُهُمُ التَّصَدِّي والمُكاء الليث كانوا يطُوفون بالبيت عُراة يَصْفِرُون بأَفواههم ويُصفِّقُون بأَيديهم. ومكَتِ اسْتُه تَمْكُو مُكاء نَفَخَتْ، ولا يكون ذلك إلا وهي مَكْشُوفة مفتوحة، وخصّ بعضهم به إِسْتَ الدَّابّة والمَكْوةُ الإست، سميت بذلك لصَفِيرها.

وقول عنترة في معلقته يصف رجلاً طَعَنَه:

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ... تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الأَعْلَمِ

يعني طَعْنةً تَنْفَخُ بالدم ويقال للطعنة إِذا فَهَقَتْ فاها. قوله: «فهقت فاها»، كذا ضبط في التهذيب.

وفي كتاب إعراب القرآن الكريم لدرويش (المكاء): بضم الميم كالثغاء والرغاء من مكا يمكو إذا صفر، ومنه المكّاء كأنه سمي بذلك لكثرة مكائه. شارحاً قول عنترة المذكور أعلاه:

وحليل غانية تركت مجدّلاً ... تمكو فريصته كشدق الأعلم

أي: ورب زوج امرأة بارعة الجمال، مستغنية بجمالها عن التزين،

قتلته وألقيته على الأرض، وكانت فريصته تمكو بانصباب الدم منها، كشدق الأعلم.

وذكروا أيضاً: مَكَتْ تَمْكُو والمُكَّاء بالضم والتشـديد طائر في ضرب القُنْبُـرةِ، إلا أن في جناحيه بَلَقاً سمي بذلك؛ لأنه يجمع يديه ثم يَصْفِرُ فيهما صَفِيراً حسناً. قال:

إذا غَرَّدَ المُكَّاءُ في غَيْرِ رَوْضة　　فَوَيْلٌ لأَهْلِ الشاء والحُمُرات

وإنما قال ذلك؛ لأنَ المكاء لا يكاد يوجد إلا في الرياض. والمُكَّاء طائر يألف الرِّيف وجمعه المَكاكِيُّ وهو فُعَالٌ من مَكا إذا صَفَرَ...

يقول امرؤ القيس:

كأنَ مكاكي الجواء غدية　　صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

... وقيل: إنَ حية أكلت بيض مكاء فأخذت حسكة بمنقارها وجعلت تفرفر على رأسـها حتى فتحت فاها فألقتها فماتـت، وفيه قال: فربما قتل المكاء ثعباناً.

إذن، فثم عداء مرير بين الطرفين، وهناك قصص كثيرة عن هذا العداء المسـتحكم بينهما. فقد حدث ابن الأعرابي عن هشـام بن سالم، وكان من رهط ذي الرمة، قال: أكلت حية بيض مكاء، فجعل يشرشـر على رأسـها ويدنـو منها، حتى إذا فتحت فاها تريده، وهمت به، ألقى في فيها حسـكة، فأخذت بحلقها حتى ماتت. وانشد أبو عمر الشيباني:

إن كنت أبصرتني قلاً ومصطلماً　　فربما قتل المكاء ثعبان

وكـذا الدميري ينقل عـن القزويني: (المكاء من طـير البادية يتخذ

أفحوصاً عجيباً. وبينه وبين الحية عداوة، فإنَ الحية تأكل فراخه.[٨٠]

والمَكْـوُ والمَكا بالفتح مقصور جُحْـر الثعلب والأَرنب ونحوهما وقيل مَجْثِمُهما وقال الطرِمّاح: كَمْ بِهِ من مَكْوِ وَحْشيَّة. وأنشد ابن بري:

وكَمْ دُونَ بَيتِكَ مِنْ مَهْمَةٍ ... ومِنْ حَنَشٍ جاحِرٍ في مَكا

قال ابن سيده: وقد يهمز والجمع أَمْكاء، ويثنى مَكاً مَكَوانِ.

قال الشاعر:

كأنَ خليفي زورها و رحاهما ... بنى مَكَوَيْن ثلما بعد صيدن

وقد يكـون المَكْوُ للطائر والحَيَّة. أبو عمـرو: تَمَكَّى الغلامُ إذا تَطَهَّر للصلاة وكذلك تطهر وتَكَرَّعَ.

وأنشد لعنترة الطائي:

إنَّكَ والجَوْرَ على سَبيلٍ ... كالمُتَمَكّي بدَمِ القَتِيلِ

يريد كالمُتَوَضِّيءِ والمُتَمَسّح.

أبو عبيدة: تَمَكَّى الفرس تَمَكّياً، إذا ابْتَلَّ بالعرق وأنشـد: والقُودُ بعْدَ القُودِ قد تَمَكَّيْن. أي ضَمَرْنَ لما سـالَ من عَرَقِهنَّ. وتَمَكَّى الفرسُ إذا حَكَّ عينه برُكبته. ويقال مَكِيَتْ يده تَمْكى مَكاً شديداً إذا غَلُظت.

وفي الصحاح: أي مَجِلَتْ من العمل. قال يعقوب: سمعتها من الكلابي الجوهري في هذه الترجمة، مِيكائيلُ اسم يقال هو ميكا، أضيف إلى إيل.

وقـال ابن السـكيت: مِيكائين بالنون لغة. قـال الأَخفش: يهمز ولا

٨٠ . أنظر التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، نسخة إلكترونية من الوراق؛ والدميري، حياة الحيوان الكبرى، نسخة إلكترونية من الوراق.

يهمز، قال ويقال: مِيكالُ وهو لغة.

وقال حسان بن ثابت:

ويَوْمَ بَدْرٍ لَقِيناكُمْ لنا مَدَدٌ فَيَرْفَعُ النُصرَ مِيكالُ وجِبريل

هذا بالنسبة للمكاء لغةً.

أما بالنسبة للتصدية لغةً، فهو والتصفيق، وقد اختلف في أصله، فقيل: هو من الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الصلبة الخالية، يقال منه: صدّى يصدّي تصدية، والمراد بها هنا ما يسمع من صوت التصفيق بإحدى اليدين على الأخرى. وقيل: هو مأخوذ من التصدد، وهو الضجيج والصياح والتصفيق، فأبدلت إحدى الدالين ياء تخفيفاً. وقيل هو من الصدّ أي المنع، والأصل تصددة بدالين أيضاً، فأبدلت ثانيتهما ياء.

وقال ابن يعيش: فأما التصدية من قوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديةً﴾. فالياء بدل من الدال، لأنه من صد يصد، وهو التصفيق والصوت، ومنه قوله تعالى: ﴿إذا قومك منه يصدّون﴾. أي: يضجّون ويعجّون، فحوّل إحدى الدالين ياءاً، هذا قول أبي عبيدة، وأنكر الرّستمي هذا القول، وقال: إنما هو من الصدى، وهو الصوت. والوجه الأول غير ممتنع لوقوع يصدون على الصوت أو ضرب منه، وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يكون تصدية منه، فتكون «تفعلة» كالتحة والتعلة، فلما قلبت الدال الثانية ياءاً امتنع الإدغام لاختلاف اللفظين.

وفي المعجم الوسيط: من الفعل صَدِيَ... صَدّى فلانٌ بيديه تصديةً: صفَّقَ بهما، والتصدية التصفيق، وهو ضرب اليد على اليد، ومنه الصدى صوت الجبل ونحوه.

وأما عند المفسرين، فقد قال الطبري في تفسيره عن المكاء والتصدية:

مكا يمكو مَكْواً ومُكاءً، وقد قيل: إنّ المكو: أن يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح، ويقال منه: مكت استُ الدابة مُكاءً: إذا نفخت بالريح، ويقال: إنه لا يمكو إلاَّ استٌ مكشوفة، ولذلك قيل للاست المَكْوَة، سميت بذلك... بمعنى: تصوّت. وأما التصدية فإنها التصفيق، يقال منه: صَدَّى يُصَدِّي تَصْدِية، وصفَق وصفَح بمعنى واحد.

وأما القرطبي في تفسيره، فقد ذكر أنَّ المُكَاء: الصَفير. والتصدية: التصفيق؛ قاله مجاهد والسدّيّ وابن عمر.

قال قتادة: المُكَاء ضرب بالأيدي، والتَّصدية صياح. وعلى التفسيرين ففيه ردّ على الجهال من الصوفية الذين يَرقُصون ويُصَفِّقون ويصعقون. وذلك كله منكر يتنزّه عن مثله العقلاء، ويتشبّه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلونه عند البيت. وروى ابن جُريج وابن أبي نَجيح عن مجاهد أنه قال: المُكَاء إدخالهم أصابعهم في أفواههم.

والتَّصدية: الصَفِير، يريدون أن يُشغلوا بذلك محمداً ﷺ عن الصلاة. قال النحاس: المعروف في اللغة ما رُوي عن ابن عمر. حكى أبو عبيد وغيره أنه يقال: مَكَا يَمْكُو مَكْواً ومُكاء إذا صَفَر. وصَدَّى يُصدِّي تصدية إذا صفق؛ ومنه قول عمرو بن الإطنابة:

وظلّوا جميعاً لهم ضجّةٌ　　　مُكاء لدى البيت بالتَّصدِيهْ

أي: بالتصفيق.

ولهم أقوال عديدة في «مُكاءً وَتَصْدِيَةً»، ذكرها الطبري في تفسيره

للآية المذكورة لم أدوّنها خوف الإطالة.

منها: ما قيل في التصدية عن سعيد بنُ جبير وابن زيد: معنى التّصدية صدّهم عن البيت؛ فالأصل على هذا تصددة، فأبدل من أحد الدالين ياء. وعن سعيد بن جبير أيضاً أنه قال: التصدية: صدّهم الناس عن البيت الحرام. وعن ابن زيد أيضاً أنه قال: التصدية عن سبيل الله، وصدُّهم عن الصلاة وعن دين الله.[٨١]

وأُجيب عن هذا (إنها الصدّ عن بيت الله الحرام) أنه قول لا وجه له؛ لأن التصدية مصدر من قول القائل: صدّيت تصدية. وأما الصدّ فلا يقال منه: صدّيت، إنما يقال منه صَدَدْت، فإن شدّدت منها الدال على معنى تكرير الفعل، قيل: صَدَّدت تصدية، إلاّ أن يكون صاحب هذا القول وجّه التصدية إلى أنه من صدّدت، ثم قلبت إحدى داليه ياء، كما يقال: تظنيت من ظننت، وكما قال الراجز: تَقَضّي البازِي إذَا البازِي كَسَرْ. يعني: تقضض البازي، فقلب إحدى ضاديه ياء، فيكون ذلك وجهاً يوجه إليه.

أذيةً واستهزاءً وتخليطاً:

هذا وقد كانوا يقيمون (المكاء والتصدية) الصفير والتصفيق مقام الدعاء والتسبيح، وأنهم كانوا يفعلون ذلك في صلاتهم، وفي طوافهم، فكان كلٌ من المكاء والتصدية نوعَ عبادة بزعمهم، قبل أن يتحوّل عملهم هذا بعد بعثته ﷺ ليكون أذيةً أو استهزاءً أو مشاكسةً لرسول الله ﷺ أو تخليطاً عليه ﷺ أو على القرآن الكريم، فقد جاءت في التفاسير أقوال عديدة، هذا تلخيصها:

كان رجال من قريش ونساء وهم جميعاً عراة، يدخلون أصابعهم

٨١ . جامع أحكام القرآن، للقرطبي؛ وجامع البيان في تفسير القرآن، للطبري: الآية.

فــي أفواههم، يشـبكون بينها، يصفرون، وآخـرون بأيديهم يصفقون؛ يفعلون هذا ليعلوا صياحهم، يعارضون النبـيَّ ﷺ فــي الطواف، يستهزؤن بــه، يخـلطون علـيه، فقد(كان إذا صلى ﷺ في المســجد يقومون عن يمينه ويســاره بالتصفير والتصفيق ليخلطوا عليه صلاته. يعارضونه في الطواف ويستهزؤن به ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته).

(فكان إذا صلى في المســجد الحرام، قام نفر من بنـي عبد الدار؛ رجلان عــن يمينه يصفران، ورجلان عن يســاره يصفقــان بأيديهما، فيخلطان عليه صلاته ويعارضون آيات القرآن الكريم)، حتى قال بعض العلماء: والمقصود عندهــم بالصفير والتصفيق التخليط حتى لا يســمع الناس القرآن مــن النبي ﷺ، ويدل لهذا قولــه تعالى: ﴿وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْـمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.[٨٢]

قيل: الغوا فيه بالتخليط في القول والمكاء والصفير، عــن مجاهد. وقيــل: معناه ارفعــوا أصواتكم في وجهه بالشعر والرجز، عن ابن عباس والسدّي.[٨٣]

فما أشده من منكر فعلوه حين يرقصون ويُصَفِّقون ويصعقــون فيرتفــع صياحهم داخل البيــت الحرام وما حولــه، إنه لفعلٌ يتنزّه عن مثله العقلاء! فاســتحقوا ذلك العذاب قتلاً وأســراً يــوم بدر بأيدي العصبة المســلمة بسبب كفرهم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة.

فقتلهم الله جميعاً ببدر ولهم يقول ولبقية بني عبد

٨٢ . فصلت : ٢٦.

٨٣ . مجمع البيان، للطبرسي: الآية.

الـدار: ﴿فذوقوا العذاب﴾، يعني عذاب السـيف يوم بدر عن الحسـن والضحـاك. وقيل: عذاب الآخرة على هذا يكون في الكلام حذف أي يقال لهم إذا عذبوا ذوقوا العذاب ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بتوحيد الله.

أمـا عـن صلاتهم هذه، فيقول الشـيخ ابن عاشـور: ولا تُعرف للمشركين صلاة؛ فتسـمية مكائهم وتصديتهم صلاةً: مشاكلةٌ تقديرية؛ لأنهـم لما صدوا المسـلمين عن الصـلاة وقراءة القرآن في المسـجد الحرام عند البيت، كان من جملة طرائق صدهم إياهم: تشغيبُهم عليهم، وسـخريتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين وصلاتهم بالمكاء والتصدية. قـال مجاهد: فعل ذلـك نفر من بني عبد الـدار، يخلطون على محمد صلاته. وبنو عبد الدار هم سـدنة الكعبة وأهل عمارة المسجد الحرام، فلما فعلوا ذلك للاستسـخار من الصلاة: سمي فعلهم ذلك صلاة، على طريقة المشاكلة...؛ فلم تكن للمشركين صلاة بالمكاء والتصدية.. وإذا أخذنـا برواية ابن عباس: كانت قريـش يطوفون بالبيت عراة يصفقون ويصفرون، فإنَّ إطلاق الصلاة على المكاء والتصدية مجاز مرسل.

ويؤيد هذا قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، لأنَّ شـأن التفريـع أن يكون جزاء على العمل المحكي قبله، والمكاء والتصدية لا يُعدان كفراً إلا إذا كانا صادرين للسـخرية بالنبيﷺ وبالدين، وأما لو أريد مجرد لهو عملوه في المسـجد الحرام فليس بمقتض كونه كفراً، إلا على تأويله بأثر من آثار الكفر...[٨٤]

فكلاهما يعدّان من خصال أهل الجاهلية ومن مساوئ الأخلاق، وقـد ذم الله في قرآنه الكريم كفـار قريش على هذا الفعل.. وأنهما أي التصفيـق والتصفير أعمـال هوجاء، لا تصلح أن تتخذ عبادة وشـعيرة

٨٤ . التحرير والتنوير: الآية.

يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى. فلا صلاة لهم بهما ولا عبادة وكلٌ الذي يحصل بهما ومنهما إن هو إلا ضرب من اللهو واللعب، وبالتالي فإنَّ المسلمين الذين يطيعون الله ويعبدونه عند هذا البيت أحقُّ بمنع المشركين منه وصدّهم عن دخوله والعبث فيه، لا العكس؛ ولهذا يقول سيد قطب: إنهم ليسوا أولياء لهذا البيت وإن كانوا يصلون عنده صلاتهم. فما هذه بصلاة! إنما كانت صفيراً بالأفواه وتصفيقاً بالأيدي، وهرجاً ومرجاً لا وقار فيه، ولا استشعار لحرمة البيت، ولا خشوع لهيبة الله. عن ابن عمر أنه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض، ويصفقون ويصفرون.

وإنَّ هذا ليخطر بالبال صور العازفين المصفقين الصاخبين الممرغين خدودهم على الأعتاب والمقامات اليوم في كثير من البلاد التي يسمونها "بلاد المسلمين"! إنها الجاهلية تبرز في صورة من صورها الكثيرة. بعدما برزت في صورتها الواضحة الكبيرة: صورة ألوهية العبيد في الأرض، وحاكميتهم في حياة الناس.. وإذا وقعت هذه فكل صور الجاهلية الأخرى إنما هي تبع لها، وفرع منها!

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾، وهو ذلك العذاب الذي نزل بهم في بدر بأيدي العصبة المسلمة. فأما العذاب الذي طلبوه ـ عذاب الاستئصال المعروف ـ فهو مؤجل عنهم، رحمة من الله بهم، وإكراماً لنبيه ﷺ ومقامه فيهم، عسى أن ينتهي بهم الأمر إلى التوبة والاستغفار مما هم فيه.[٨٥]

---

٨٥ ـ أنظر في هذا كله مجمع البيان، للشيخ الطبرسي؛ الطبري في تفسيره؛ تفسير أحكام القرآن، للجصاص؛ وأضواء البيان، للشنقيطي؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ في ظلال القرآن، لسيد قطب: الآية.

وخلاصة قصدهم من المكاء والتصدية:

فبعد أن ذكر بعض المؤرخين والمفسرين ما جاء عن سعيد بن جبير: أنّ مكان فعلتهم هذه ناحية أبي قبيس أو نحو أبي قبيس. ذكروا في مرادهم وقصدهم من فعلتهم هذه أقوالاً عديدة، نذكر منها ما تيسر لنا:

*** لهو ولعب:**

فليس لهم صلاة ولا عبادة، وإنما يحصل منهم ما هو ضرب من اللهو واللعب، وبالتالي فالمسلمون الذين يطيعون الله ويعبدونه عند هذا البيت أحقُّ بمنع المشركين منه.

*** الدعاء والتسبيح :**

فعن ابن عباس أنه قال: كانت قريش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون، يقيمون المكاء والتصدية مكان الدعاء والتسبيح.

* موقفٌ قرشيٌ يستهدف النبيَ صلى الله عليه وآله في الطواف: يستهزؤون به، يصفرون، ويصفقون، ويخلطون عليه وعلى ما يقرأه من آيات قرآنية..

*** الطواف:**

وهو ما اتفقت عليه الأقوال، يقول الطبري: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، فأمروا بالثياب... يذكر القرطبي عن ابن عباس أنه قال: كانت قريش تطوف بالبيت عُراة، يصفِّقون ويصفِّرون؛ فكان ذلك عبادة في ظنهم.

والذي يبدو أنّ بعضهم فقط هم الذين يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون لا كلهم. ففي تفسير قوله تعالى في الآيات:

٢٦ـ٣٢ من سورة الأعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ...﴾.

يقول الطبري: يقول جلّ ثناؤه للجهلة من العرب الذين كانوا يتعرّون للطواف اتباعاً منهم أمر الشيطان وتركاً منهم طاعة الله، فعرّفهم انخداعهم بغروره لهم حتى تمكن منهم فسلبهم من ستر الله الذي أنعم به عليهم، حتى أبدى سوآتهم وأظهرها من بعضهم لبعض، مع تفضل الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنهم قد سار بهم سيرته في أبَوَيهم آدم وحوّاء اللذين دلاهما بغرور حتى سلبهما ستر الله الذي كان أنعم به عليهما حتى أبدى لهما سوآتهما فعرّاهما منه: ﴿يا بَني آدَمَ قَدْ أنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً﴾: يعني بإنزاله عليهم ذلك: خلقه لهم، ورزقه إياهم. واللباس: ما يلبسون من الثياب. ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم. وكنى بالسوآت عن العورات، واحدتها سَوْأة، وهي فَعْلة من السوء، وإنما سميت سوأة لأنه يسوء صاحبها انكشافها من جسده، كما قال الشاعر:

خَرَقُوا جَيْبَ فَتَاتِهِمْ　　　لم يُبالُوا سَوْأَةَ الرُّجْلَهْ

ثم يقول: وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. وراح يذكر أقوالهم.[٨٦]

فلِباس التَّقوَى هو الحياء، هكذا راح التنزيل العزيز يبين للجهلة من العرب الذين كانوا يتعَرَّوْن في طوافهم بالبيت.. وقد ابتدأ سبحانه ذلك بإنزاله اللباس الذي يواري سَوْآتنا والرِّيَاش توبيخاً للمشركين الطائفين عراة: الرجال بالنهار، والنساء بالليل، ويأمرهم بأخذ ثيابهم والاستتار

٨٦ . أنظرها في تفسير الطبري: الآية.

بهـا مع الإيمان به واتباع طاعتـه، إذ كانوا يطوفون بالبيت عُراةً متحججين بقولهـم: «نطوف كما ولدتنـا أمّهاتنا»!، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسْـعة أو الشيء فتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلّه فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلّهُ

فعُذِلـوا على مـا أتَـوْا من قَبيـح فعلهـم وعُوتبوا عليه،فكان جوابهم: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثلما كانـوا يفعلون من التعـرّي والتجرّد من الثياب واللباس للطواف، ونقتدي بَهْديهم ونستنّ بسُنّتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه. فيقول الله جلّ ذكره لنبيه محمدﷺ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءَنَا وَٱللّٰهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللّٰهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.[٨٧]

وظلّ الناس يطوفون في الجاهلية عراة إلا الحمس، والحمـس قريـش وما ولدت يحتسـبون علـى الناس، يعطي الرجل الرجل الثيـاب يطوف فيها، وتعطي المرأة المراة الثياب تطوف فيهـا، فمن لم يعطه الحمس طاف بالبيت عرياناً.. وقد اسـتمر طواف العري إلى أن حظره الرسـولﷺ حين قال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علياًعليه السلام فقال: اذهب بهذ القصة من سورة براءة وأذن في النـاس يوم النحر إذا اجتمعـوا بمنى أن لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

٨٧ . الأعراف : ٢٨.

❊ التلبية :

فـــي معاجم اللغة: من لبّي يلبي تلبية، والتلبية هي الإجابة، وأيضاً التلبية هي أن يقول: «لبيك». ولبّى بالحجَ، لبّى في الحجّ قال: لَبّيْكَ اللّهُمّ لَبّيْكَ لبّى الحجيجُ...

كانت لأهل الجاهليـــة تلبيات عديدة حين يحجّون، لا تخلو من الشـــرك، وكيف تخلو والشرك أســـاس عقائدهم وسنة عباداتهم، ومن تلك التلبيات، التي تسمع من الطائفين بالكعبة يومذاك:

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شـــريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَك.

ـ تلبية قبيلة «عك»، وهـــي قبيلة في اليمن: فقد كانت قبيلة عَك إذا خرجوا حجاجاً، قدموا أمام ركبهم غُلامين أســـودين من غلمانهم، يقولان: نحن غرابا عَكّ. فتقول عَكّ من بعدهما:

عَكٌّ إليك عانية عبادك اليمانية

كيما نحجُّ الثانية !

عانية... ومعنى عانية متقربة ومخلصة وساجدة خاضعة مثل: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾، عبادك اليمانية.. أي عبيدك من اليمن.

فكانت هذه هي تلبية عكّ.[٨٨]

❊ الإفاضة:

أما إفاضتهم، فكانت قريش ومَنْ وَلَدَتْه، وهم الذين كانوا يُسَمّوْن

---

٨٨ . أنظر كتاب: الأصنام، لأبي المنذر الكلبي، التلبية.

فــي الـجاهلـية: «الـحُمْس»، يقولون: لا نـخـرج من الـحَرَم. فكانوا لا يشــهدون موقـف الناس بعَرَفة معهم، فأمرهــم الله بـالوقوف معهم والإفاضة مــن عَرَفـات، وهي التـي كان يُفيض منها ســائر الناس غير الـحُمْــس. وعن عائشــة: كانت قريــش ومن كان علـــى دينها، وهم الـحُمْس، يقـفــون بـالـمزدلفة ويقولون: نـحــن قَطِين الله. ثم جعلوا لـمــن ولدوا من العرب من ســاكنـي الـحِلّ مثل الـذي لهم بولادتهم إياهــم، فـيَحِــلّ لهم ما يحلّ لهــم، ويَحْرُم علـيهم ما يَحْـرُم علـيهم. وكانت كِنَانة وخُزَاعة قد دخـلوا معهم فـي ذلك، ثم ابتدعوا فـي ذلك أمــوراً لـم تكن، حتـى قالوا: لا ينبغــي للـحُمْس أن يَأْقِطوا الأَقِط، ولا يَسْــلأوا السَّــمْن وهم حُرُم، ولا يدخـلوا بـيتاً من شــعر، ولا يستظلوا إن اســتظلوا إلا فـي بـيوت الجلد طَــوال إحرامهم. ثم غالَوْا فـي ذلك فقالــوا: لا ينبغــي لأهل الـحلّ أن يأكلوا من طعــام جاءوا به معهم من الـحلّ فـي الـحَرَم إذا جــاءوا حُجّاجاً أو عُمّاراً، ولا يطوفوا بـالبـيت إذا قَدِمُــوا أوّل طوافهم إلا فـي ثـيــاب الـحُمْس، فإن لـم يجدوا منها شيئاً طافوا بـالبـيت عراة. فحَمَلوا العربَ علـى ذلك، وكان مَنْ سواهم يقـفــون بعرفة، فأمرهم الله بـالوقوف معهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.[٨٩]

وعن مجمع البيان، للشيخ الطبرسي ذكر في تفسير هذه الآية: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾. قولين: أحدهما: أنّ المراد به الإفاضة من عرفات وأنه أمر لقريش وحلفائها وهم الحُمْس وقيل إلاّ أنّ الحُمْس (وهــو قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعــم وبنو عامر بن صعصعة،

---

٨٩ . البقرة : ١٩٩.

وبنو النضر بن معاوية وإنما سموا حُمساً لتشددهم في دينهم والحماسة الشدة. هذا ما ذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره، والواحدي في أسباب النـزول للآيـة: ١٨٩ البقرة) لأنهم كانوا لا يقفون مـع الناس بعرفة ولا يفيضـون منهـا ويقولون: نحن أهل حرم الله نخـرج منه وكانوا يقفون بالمزدلفة ويفيضون منها فأمرهم الله بالوقوف بعرفة والإفاضة منها كما يفيض الناس والمراد بالناس سائر العرب عن ابن عباس وعائشة وعطاء ومجاهد والحسن وقتادة وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام وقال الضحاك: إنه أمـر لجميع الحاج أن يفيضوا من حيـث أفاض إبراهيم؛ عن الضحاك قال: ولمّا كان إبراهيم إماماً كان بمنزلة الأمة فسماه وحده ناساً. والثاني: أنّ المراد به الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمـي والنحر عن الجبائي قـال: والآية تدل عليه لأنه قال: فإذا أفضتم مـن عرفات ثم قال: ثم أفيضوا فوجب أن يكون إفاضة ثانية فدل ذلك على أنّ الإفاضتين واجبتان والناس المراد به إبراهيم كما أنه في قولـه: ﴿الذين قال لـهم الناس﴾.[٩٠]

* إتيان البيوت من ظهورها:

وكان الأنصار فـي الـجاهلـية وفي أول الإسلام، إذا أَهَلّ أحدهم بالحـجّ أو العُمْرة لم يدخـل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بـابه، فإن كان من أهل المدن، نقب نقباً في ظهر بيته يدخل ويخرج، أو يتسوّر حائطاً، أو يتخذ سـلماً، فيصعد الباب حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك ديناً إلا أن يكـون من الحمس، وأسـلموا وهم كذلك. فأنـزل الله تعالـى ذكره:

٩٠ . آل عمران : ١٧٣؛ أنظر مقالتنا (إفاضةٌ بل إفاضتان) في العدد: ١٩ ميقات الحج.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.[91]

ونهاهم عن صنيعهم ذاك، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها.

يقول ابن عاشور: روى الواحدي في «أسباب النزول: أنّ النبي ﷺ أهلّ عام الحديبية من المدينة وأنه دخل بيتاً وأنّ أحداً من الأنصار، قيل: اسمه قطبة بن عامر وقيل: رفاعة بن تابوت. كان دخل ذلك البيت من بابه اقتداء برسول الله فقاله له النبي ﷺ : لم دخلت وأنْتَ قد أحرمت؟ فقال له الأنصاري: دخلت أنت فدخلت بدخولك فقال له النبي ﷺ : إني أحمس فقال له الأنصاري: وأنا ديني دينك رضيت بهديك فنزلت الآية، فظاهر هذه الروايات أنّ الرسول نهى غير الحُمس عن ترك ما كانوا يفعلونه حتى نزلت الآية في إبطاله.

وفي «تفسير ابن جرير وابن عطية» عن السدي ما يخالف ذلك وهو: أنّ النبي ﷺ دخل باباً وهو محرم وكان معه رجل من أهل الحجاز فوقف الرجل وقال: إني أحمس فقال له الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وأنا أحمس، فنزلت الآية، فهذه الرواية تقتضي أنّ النبي ﷺ أعلن إبطال دخول البيوت من ظهورها. وأنّ الحمس هم الذين كانوا يدخلون البيوت من ظهورها.

وأقول ـ والقول لابن عاشور: الصحيح من ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن البراء بن عازب قال: كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل فدخل من بابه فكأنّه عبّر بذلك فنزلت هذه الآية، ورواية السدي وَهْم، وليس في

٩١ . البقرة : ١٨٩.

الصحيح ما يقتضي أنّ رسول الله ﷺ أمر بذلك، ولا يظن أن يكون ذلك منه، وسياق الآية ينافيه.[٩٢]

وهكذا ظلّوا في جهالتهم يعمهون، فهم قساة ظلمة في علاقتهم ببناتهم ونسائهم.

فالأولاد يُقتلون:

وكم هو مؤلم ما كانت تمارسه بعض القبائل من وأد البنات عبر عادة وحشية ندّدت بها آياتٌ قرآنية مراراً وتكراراً، وشددت فى النهى تشديداً عظيماً: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.[٩٣]

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾.[٩٤]

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.[٩٥]

فقد جاء في تفسير هاتين الآيتين أنّ مضر وخزاعة وتميماً كانوا يدفنون البنات أحياءاً، خوفاً من الفقر عليهم، وطمع غير الأكفاء فيهن، وكان الرجل من العرب إذا ولدت له بنت وأراد أن يستحييها: ألبسها جبة من صوف أو شعر، وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا

---

٩٢ . أنظر تفسير التحرير والتنوير، ومجمع البيان، وأسباب النزول، للواحدي، الآية : ١٨٩ البقرة.

٩٣ . الأنعام : ١٣٧.

٩٤ . الإسراء : ٣١.

٩٥ . النحل : ٥٨ ـ ٥٩.

أراد أن يقتلها: تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فإذا بلغ بها البئر قال لها: انظري إلى هذه البئر، فيدفعها من خلفها في البئر، ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾.

وكان صعصعة عم الفرزدق أو جدّه في قول، إذا أحس بشيء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلاً يحييها بذلك، فقال الفرزدق يفتخر به.

وعمي الذي منع الوائدات فأحيا الوئيد فلم تُوأد

واليتامى يُظلمون!

لقد كانت معاملاتهم وعلاقاتهم قائمةً على ظلم الآخر والبغي عليه، فاليتيم بينهم لا يرحم بل يؤكل حقّه، حتى وصل بمن هو وصيٌّ عليه أن يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، وإنّ أولئك اليتامى كانوا ممنوعين من الميراث ومحجورين.. وقد نزلت في اليتامى آيات عديدة آمرةً بالعدل في التعامل معه، ناهيةً عن ظلمهم ومصادرة أموالهم، محذرةً ظالميهم وتتوعدهم بأشد العذاب. ومن هذه الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾.[٩٦]

والبنات لا يُورَّثن:

وهكذا هم في جاهليتهم لا يقف ظلمهم للنساء عند حدٍّ ، فهم

---

٩٦ . النساء : ١٠.

فــي الغالب لا يورثــون البنات ولا الصبية إلا التافــه القليل؛ لأنَ هؤلاء وهــؤلاء لا يركبون فرســاً، ولا يردون عاديــاً، لا يُوَرِّثون إلا من طاعَنَ بالرمح وقاتَلَ بالسيف، «لا يُعطَى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة» هذه مبرراتهم نجدها، ونحن نقرأ ســبب نزول الآية: ﴿لِلرِّجَــالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَــاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾.[٩٧]

فأوس بن ثابت الأنصاري، توفــي وترك امرأة يقال لها: أمّ كُجّة أو أمّ حجــة وثــلاث بنات له منها؛ فقــام رجلان هما ابنــا عم الميت ووصياه يقال لهما: سُــوَيْد وعرْفَجة؛ فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً.. فذكــرت أمّ كُجّة ذلك لرســول الله ﷺ فدعاهما، فقالا: يا رســول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كَلاًّ ولا يَنْكأُ عدوّاً. فقال عليه السلام: «انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن».

وكذا تلك التي مات عنها زوجها أوْس بن سُــوَيْد وترك لها بنتاً، فذهــب عَمّ بنيها إلى ألاّ ترث، فذهبت إلى النبيّ ﷺ فقال العَمّ: هي، يا رســول الله، لا تقاتل ولا تحمل كَلاًّ ويُكْسَب عليها ولا تَكْسِب. فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم، وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم؛ فإنّ الورثة الصغــار كان ينبغــي أن يكونوا أحق بالمال مــن الكبار، لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم، وأخطاؤا في آرائهم وتصرفاتهم.[٩٨]

وهناك صنوف أخرى من الظلم والغبن تعرّضت له النســاء، في

---

٩٧ . النساء : ٧.

٩٨ . أنظر في ظلال القرآن؛ وأسباب النزول؛ والجامع لأحكام القرآن؛ وغيرها: الآية.

الجاهلية، وظهرت بعض آثارها ورواسبها في الإسلام وهو في المدينة المنورة، ومن ذلك ما ذكره المفسرون، وهذه خلاصته:

ـ يرثونهن كَرهاً ويعضلونهن:

كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة ألقى ثوبه عليها وقال: أنا أحقّ بها من كل أحد.

كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها.

كان الرجل يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى تموت، أو ترد إليه صداقها.

كانت المرأة في الجاهلية إذا توفي عنها زوجها، فجاء رجل فألقى عليها ثوباً، كان أحق بها.

كان الرجل إذا مات، وترك جارية، ألقى عليها حميمه ثوبه، فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها.

كان الرجل من أهل المدينة إذا مات حميم أحدهم، ألقى ثوبه على امرأته، فورث نكاحها، ولم ينكحها أحد غيره، وحبسها عنده حتى تفتدي منه بفدية.

كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية، ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجها من أراد.

كان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها.

حتى جاءت هذه الآيات من سورة النساء: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ...». [٩٩]

فلتطهير المجتمع الإسلامي وتنظيف ساحته ونفوس أتباعه من هذه الرواسب، نزلت هذه الآية وغيرها. وقد علّق الزمخشري: كانوا يَبْلُون النساء بضروب من البلايا ويظلمونهن بأنواع من الظلم، فزُجروا عن ذلك بنزول هذه الآيات. وكذا في مجمع البيان للطبرسي: أنّ أهل الجاهلية كانوا يؤذون النساء بأنواع كثيرة من الايذاء، ويظلمونهن بضروب من الظلم، فالله تعالى نهاهم عنها في هذه الآيات. [١٠٠]

ـ عدم معاشرة الحائض:

وهناك ضرب آخر من الظلم للمرأة يتمثل في أن من قبائل العرب في الجاهلية، وحتى بعضهم بعد أن أسلم من كانت الحائض عندهم مبغوضة بدرجة تدعوهم إلى عدم معاشرتها في الأكل والشرب، بل ونفيها بعيداً عنهم حتى تطهر.

فقد ذكر الرازي وغيره في تفسير: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ». [١٠١] أنّ اليهود والمجوس كانوا يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، والنصارى كانوا يجامعونهن، ولا يبالون بالحيض، وأنّ أهل الجاهلية كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجالسوها على فرش، ولم يساكنوها في بيت كفعل اليهود والمجوس، فلما نزلت هذه الآية

---

٩٩ . النساء : ١٩.

١٠٠ . أنظر تفسير ابن كثير، وأسباب النزول، للواحدي؛ وغيرهما، الآية : ١٩ النساء.

١٠١ . البقرة : ٢٢٢.

أخذ المسلمون بظاهر الآية فأخرجوهن من بيوتهن، فقال ناس من الأعراب: يا رسول الله البرد شديد، والثياب قليلة، فإن آثرناهن بالثياب هلك سائر أهل البيت، وإن استأثرناها هلكت الحُيَّض، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنما أمرتكم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم».[١٠٢]

وهكذا كانوا في لهوهم وعبثهم في مجالس ميسرهم وقمارهم وخمورهم، وفي معاملاتهم التجارية وأسواقهم، وأخطرها التطفيف، وهو الكيل بمكيالين، الذي كان سائداً فيها، وهو مبدأ ظالمٌ متنهكٌ لحقوق الناس. وقد أعلن الإسلام وهو في العهد المكي الحرب عليه عبر المقطع الأول من سورة المطففين المكيّة، إلا أنَّ التطفيف أو الكيل بمكيالين، الذي حاربه الإسلام؛ صار مبدأً سياسياً لجميع الدول والكيانات في علاقاتها وتجاذباتها فيما بينها ومع الشعوب وحقوقها..، ولا يتورّع عنه أحدٌ من العالمين ممن يملك سلطةً وقدرةً أو جاهاً ومالاً، وعجبي في ازديادٍ من أولئك الذين يُفترض أنهم قريبون من مبادئ السماء، ومن روح هذه الآيات، وبالتالي أن يبتعدوا عن منهج التطفيف هذا، الذي عُدَّ من الكبائر، إلا أنهم راحوا يتعاملون به كما يتعامل أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام ولا بقيمه، وكأنَّ ليس هناك هلاكٌ أعلنته السماءُ عليهم، ولا موقفٌ جامعٌ ينتظرهم بين يدي الله في يوم عظيم يتمُّ فيه الحساب والجزاء. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾!!

كما لا بدَّ لي أخيراً من الإشارة إلى نظام الرقّ والعبودية، الذي كان قد نشأ في أحضان الجاهلية وترسخت مبانيه في أذهانهم، بعد أن

١٠٢. مفاتيح الغيب: الآية.

أفرزته العديد من الأسباب التي منها ما هو سياسي وما هو اقتصادي واجتماعي.. والغزوات والوقائع الدامية التي وقعت بينهم، لها دور في إنشاء هذا النظام: العبيد والجواري، ولم ينجو من سيئاته وضحاياه كبير ولا صغير، رجل أو امرأة أو طفل؛ إذلالاً لقبائلهم وإضعافاً لها، وزيادةً في إلحاق الهزيمة بها، إضافةً إلى ما يترتب من أرباح مالية في عمليات بيع وشراء ظالمة لهم. فأسواق النخاسة في الجاهلية كانت مفتوحةً لمن ساقه سوءُ حظه وقدره من أولئك الذين وقعوا في الأسر، أو ممن تعاقبت عليهم الأيدي في عمليات بيع وشراء قذرة، حتى أوجدت منهم عبيداً وجوارٍ مستعبدين، مهانين، مهضومي الحقوق، يعيشون على هامش المجتمع.. فلما جاء الإسلام قابل هذه الظاهرة المنتشرة والمتجذرة في الواقع يومذاك بأساليب وحلول مرنة وتدريجية، منها: تثقيف المسلمين وحثّهم على حسن التعامل مع هذه الطبقة من الناس، وتشجيعهم على تحريرهم، وجعل هذا من أعمال البرّ و المعروف، التي يؤجر عليها فاعلها ويُثاب، وجعل عتقهم من وسائلِ التكفير عن بعض المخالفات والذنوب، ومن الديات، وأيضاً راح يحثُّ ضحايا هذا النظامِ على تحرير أنفسهم عبر المكاتبة مع مالكيهم.. حتى تتم عملية فكِّ رقابهم، وإنهاء هذا النظام في المجتمع بصورة غير قسرية ولا دفعية؛ لكي لا تؤثر في الموازنات الاجتماعية والاقتصادية القائمة في تلك المجتمعات، فتأتي بنتائج سلبية...